الخير العميم

للمنهج الوقائي في القرآن الكريم

تأليف

خالد بن محمد عطية

ح _ خالد محمد أحمد عطية ، ١٤٣٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

عطية، خالد محمد

الخير العميم للمنهج الوقائي في القرآن الكريم .

خالد بن محمد عطيه . مكة المكرمة ، ١٤٣٦هـ .

٢٢٥ ص ؛ ٢٤ سم

ردمك : ٧ . ٦٨٦٣ . ٠١ . ٦٠٣ . ٩٧٨

١- القرآن – مباحث عامة . ٣- الوعظ والإرشاد أ — العنوان

ديوي ٢٢٩ ١٤٣٦/ ٨٤٦

رقم الإيداع : ١٤٣٦/ ٨٤٦

ردمك : ٧ . ٦٨٦٣ . ٠١ . ٦٠٣ . ٩٧٨

الناشر :

دار الطرفين . الطائف . وادي وج .

هاتف : ٧٣٢٩٥٧٢ . فاكس : ٧٤٦٣٦٨٨

ص ب : ٢٥٧٩

جوال : ٠٥٠٥٧٠٤٨٠٨

قال تعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣ ﴾ [الشورى]

وفي الأثر عن علي رضي الله تعالى عنه قال : قال ﷺ :

(**ألا إنها ستكون فتنة** . فقلت : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : **كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا** : ﴿ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ ٢ ﴾ . **من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم**)[الترمذي والدارمي] .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمدلله رب العالمين الذي جعل النجاة في التمسك بدينه وجعل الرفعة في قبول منهجه وجعل القرآن الكريم هادياً للتي هي أقوم، أنزله على رسول البيان ليكون منهاجاً لكل الزمان من عند ربه الرحيم الرحمن . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له امتن على العباد بشريعة غراء، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله وخيرته من خلقه ﷺ إمام التقى ومنارة الهدى لكل الورى .

ثم أما بعد :

أصل هذا الكتاب رسالة ماجستير نوقشت في جامعة أم القرى كلية الدعوة وأصول الدين قسم الكتاب والسنة شعبة التفسير وعلوم القرآن تحت اسم : (المنهج الوقائي في القرآن الكريم، دراسة تأصيلية) . وقد أجيزت بفضل الله تعالى ومنّته وتوفيقه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف .

والمعروف عن الدراسات الأكاديمية أن طريقتها تتسم بتناول الموضوع في شقها الأول كدراسة موضوعية، يتبعها الشق الثاني كمحصلة لتلك الدراسة، متبوعة بالنتائج والتوصيات، مما حملني على اختصار البحث وحذف النقولات والحواشي والإحالات وتغيير ترتيبه بما ينسجم كموضوع متكامل مستخلص يقدم للقارئ العزيز .

وعموماً فالقرآن الكريم هو الكتاب السماوي الذي ختمت به الكتب السماوية، كما ختمت بمحمد ﷺ النبوات والرسالات، وعليه كان حتماً ولا بد من أن يحتوي على منهج يضمن خير البشرية جمعاء، ويحقق النفع لكل الزمان، ولكل

المكان، تكون له القدرة على مسايرة المتغيرات، ومواكبة المستجدات، ومراعاة مقتضى الحال، تحوي آياته وتتضمن هداياته كل متطلبات الدين والدنيا معاً، بما فيه من أحكام، وحدود، وشرائع، وهدايات، وفضائل، ودعوات، وإرشادات، وتعاليم، وتوجيهات، وبما فيه من معجزات، ولفتات، ونكات، ولطائف، وإشارات، وإيحاءات .

وبوجه عام منهج مقررٌ لكل ما من شأنه نفع البشرية مطلقاً، حين أمر بجملة المنافع والفضائل، وحث عليها وحض، وفي الوقت نفسه حين نهى عن عموم المفاسد، والمضار، والرذائل، وحذر منها وخوف، في منهج وقائي عام تام شمل كل ضروريات الناس، وحاجياتهم وتحسينيات حياتهم .

فكان دستوراً وقائياً عاماً بكل معنى الكلمة، وقائيات معنوية تخاطب المعنويات والروحانيات، ووقائيات مادية حسية أيضاً تشمل الجوارح والأعضاء .

وبذلك تحقق وتأكد مدى نفعية الشرع المطهر الذي ورد في القرآن الكريم وجاء له، وبه، وبمنهجه المتكامل الذي شمل كل نواحي الحياة، وبهذا تكون إقامة شرع الله تعالى على وجه الأرض .

والوقاية فيه ليست جزئية منه وحسب، وإنما منهج عام شائع فيه، وأسلوب أصيل من أصوله التي جاء بها ولها . وقد جاءت على ضربين اثنين :

١- الجانب التأصيلي التشريعي لكل ما يحقق نفع الناس .

٢- الجانب العلاجي متى وقع الناس في الخطأ والخلل .

وبالتالي فكأن المنهج الوقائي هنا هو الدين كله ! بل هو كذلك؛ لأن الدين إنما جاء بالمنهج الحق لإقامة العبودية لله سبحانه وتعالى على الوجه الصحيح، فما خلا تشريع في القرآن الكريم منه أبداً، ودلالات كل أمر، أو نهي، أو توجيه، أو

تحذير، أو تخويف، وترهيب، أو تشويق، وترغيب، أو ما سوى ذلك، كل ذاك جاء متضمناً له محققاً إياه .

وأخيراً ! أسأل الله تعالى العزيز الحكيم للجميع الفهم والبيان والمعرفة والإتقان لما يحقق نفعنا ورفعتنا في الدارين . وصلى الله على سيدنا ونبينا وحبيبنا محمد وسلم وبارك وزاد وأنعم وأتمم وعلى آله وأصحابه واتباعه . اللهم آمين ،،،

مكة المكرمة

في ١٥/١٠/١٤٣٥هـ

جوال : ٠٥٠٤٧٩٩٥١١

ص ب : ٤٣٨٢

E-kamahaz@hotmail.com

تمهيد :

كلمة (المنهج) في اللغة تعني : الطريق الواضح، قال ابن دريد رحمه الله تعالى : "والنهج : الطَّرِيق الْوَاضِح، وَالْجمع نهوج ونهاج وَهُوَ الْمنْهَج وَالْجمع مناهج"[١].

وكذلك عند أهل التفسير وعلوم القرآن الكريم، قال ابن كثير رحمه الله تعالى : "هو الطريق الواضح السهل، والسنن : الطرائق"[٢].

أما كلمة (وقاية) فتعني : الصيانة، قال الجرجاني رحمه الله تعالى : "وهي عند أهل الحقيقة : الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وهو صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك"[٣].

وهي كذلك عند أهل التفسير وعلوم القرآن الكريم ففي الموسوعة القرآنية هي : "حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره"[٤].

وقال ابن عطية رحمه الله تعالى : "الحائل بين الشيء وما يضره"[٥].

وقال أبو السعود رحمه الله تعالى : "فرْطُ الصيانة والتقوى في عُرف الشرع عبارةٌ عن كمال التوقي عما يضُره في الآخرة"[٦].

وإجمالاً، هي : البُعد عن كل ما يضر بالإنسان، أو يفوّت عليه المصالح .

---

[١] ابن دريد . جمهرة اللغة . ط١، دار العلم للملايين . ج١، ص٤٩٨ .

[٢] ابن كثير . تفسير القرآن العظيم . ط١، دار الكتب العلمية . ج٣، ص١٢٩ .

[٣] الجرجاني . التعريفات . ص٦٥ .

[٤] الأبياري . الموسوعة القرآنية . ط١٤٠٥هـ، مؤسسة سجل العرب . ج٨، ص٦٠١ .

[٥] ابن عطية . المحرر الوجيز . ط١، دار الكتب العلمية . ج٥، ص١٨٨ .

[٦] أبو السعود . إرشاد العقل السليم . ط دار إحياء التراث العربي . ج١ ، ص٢٧ .

وبهذا يكون التعريف الاصطلاحي المختار، لمصطلح (المنهج الوقائي)، من حيث العموم هو : الطريق الواضح الذي يضمن سلامة الإنسان .

وحال نسبته إلى القرآن الكريم يكون التعريف العام : طريقة القرآن الكريم، التي دعا الإنسان من خلالها لتطبيق مراد الله سبحانه وتعالى منه، لتتحقق له جملة المنافع والمصالح، ويسلم من كافة المفاسد والمضار .

وقد رد في القرآن الكريم مجمل[1]؛ التشريعات الكاملة التامة؛ لكل ما يحقق للخلق كافة المصالح والمنافع، ويدرأ عنهم عموم المفاسد والمضار؛ يتضح ذلك من خلال :

١- جملة الأوامر والنواهي التي تضمنت الأحكام والحدود .

٢- جملة الأخلاق التي تضمنت الآداب والفضائل .

وبالاستقراء والتتبع اتضح أن القرآن الكريم قد انتهج لإرساء مفهوم المنهج الوقائي فيه، منهجين اثنين، هما :

الأول : المنهج الوقائي العام :

ورد فيه الحديث عن خلق الإنسان، موجهاً جميع خطاباته بصيغ العموم، كما في النداءات المطلقة : (يا أيها الناس . يا بني آدم . يا أيها الذين آمنوا) .

والخطابات التي تحدثت عن الإنسان، أو العبد، أو البشر، أو العالمين، من حيث العموم .

والخطابات التي اطلقت بالأسماء الموصولة : (من . الذي . الذين) وما إلى ذلك . يلاحظ في كل تلك الخطابات أنه لم يرد فيها تخصيص لأي من مجالات

[1] قصدت بالمجمل هنا أي أصول التشريعات الدينية، وما يتفرع عنها من تعاليم وتوجيهات .

الوقاية[1]، وإنما تحدث عنها من حيث العموم وبمفهومها العريض الشامل، متضمنة التوجيه اللازم المناسب . تجلى ذلك فيما يلي :

١- الآيات التي تبين حقيقة هذا الدين، وشرعه المطهر، ومنهج القرآن الكريم في ذلك كقوله جل في علاه في سورة الإسراء : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ . وأقوم أي : أفضل منهج، وأعدله، وأوسطه . فمنهج القرآن الكريم هو الأقوم في كل شيء، في العبادات، وفي المعاملات، وفي الأحكام، والحدود، هو الأقوم من حيث التأصيل المنظم لحياة البشر، والأقوم من حيث الهداية والعلاج . هو الأقوم في كل جوانب الحياة المختلفة، الروحية والمعنوية . فلا أقوم، ولا أحكم، ولا أعدل، ولا أحسن منه أبداً . والآية هنا في سياق العموم ووقاية الخلق بمضمونها، من غير ذكر أو تخصيص لأي من مجالاتها على وجه التحديد .

٢- الآيات التي تبين هدايات القرآن الكريم في إظهار مدى نفعية دين الله تعالى لعموم البشر، كقوله سبحانه في سورة الإسراء : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ . والشفاء هنا نوعان : شفاء قلوب، وشفاء أبدان . والشفاء يكون متى حصل الداء ووقع على الإنسان، والرحمة تمنع من وقوعه أصلاً . فكان القرآن الكريم بذلك وقاية وعلاجاً في آنٍ واحد .

[1] وهي حفظ : (العقل والدين والنفس والعرض والمال) . وسيأتي تناولها بالتفصيل في الفصل الثاني .

٣- الآيات التي تحدثت عن الإنسان، وعن حقيقة وجوده في هذه الحياة الدنيا كقوله تعالى في سورة الإنسان : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ . هذه الآيات فيها من التوجيه لعموم جنس الإنسان، ولبيان حاله فيها، وموقفه من قبول المنهج الحق، والتسليم له، أو رفضه والخروج عن مضمونه ومقتضاه .

٤- الآيات التي تحذر من الشيطان الرجيم وموقفه من بني آدم عليه السلام، وتوعّده بإغوائهم وغاية حرصه على ذلك كقوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ . تبين هذه الآيات مدى عداوته لبني آدم عليه السلام، وطريقته في إغواء الخلق، ووسوسته لهم، وذلك غاية مراده في هذه الدنيا .

٥- آيات المواعظ المطلقة والتذكير بها كقوله سبحانه وتعالى في سورة المائدة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ . حوت هذه الآية التذكير بنعمة الله تعالى على عباده المؤمنين إذ نجاهم من عدوهم . والآية في سياق التذكير العام لا تخصيص فيها .

٦- الآيات التي تحدثت عن التقوى عامة، من غير تحديد مجال من مجالات الوقاية، منها قول الله تعالى في سورة الحج : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ

﴿ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ . فهذه الآية من أدلّ آيات الوقاية بمنهجها العام، من غير تخصيص لأي مجال من المجالات كما تبين .

وبهذا اتضح أن القرآن الكريم جاء فيه الحديث عن المنهج الوقائي، بصفة تستحث عقول البشر لقبول ذلك المنهج الحق، والنظر إليه والالتفات إلى مدى نفعيته، منهجاً حياتياً معيشياً كفل لهم كافة الحقوق، قبل أن يكون منهجاً شرعياً .

الثاني : المنهج الوقائي الخاص :

أما المنهج الثاني، فقد جاء الحديث عنه في كثير من الآيات التي تخص حفظ كل مجال من تلك المجالات على حده، بما يحقق له منهجاً متكاملاً في نوعه، وكل ما يختص به، تناولت مضمون المنهج الوقائي في آيات كثيرة، بالتوجيه اللازم المناسب فيما يخص مجال حفظ العقل، وآيات أخرى تناول فيها ما يخص مجال حفظ الدين، وثالثة فيما يخص مجال حفظ النفس، ورابعة فيما يخص مجال حفظ العرض، وخامسة فيما يخص مجال حفظ المال . قال الشعراوي رحمه الله تعالى : "إن هدف الدين في المقام الأول سلامة الضرورات الخمس التي لا يستغني عنها الإنسان : سلامة النفس، وسلامة العرض، وسلامة المال، وسلامة العقل، وسلامة الدين . وكل التشريعات تدور حول سلامة هذه الضرورات الخمس، ولو نظرت إلى هذه الضرورات تجد أن الحفاظ عليها يبدأ من سلامة العقل، فسلامة العقل تجعله يفكر في دينه . وسلامة العقل تجعله يفكر في حركة الحياة . وسلامة العقل تجعله يحتاط لصيانة العرض"[1].

[1] الشعراوي . تفسير . ج٢، ص٩٤١ .

وبهذا أتت كل آيات القرآن الكريم على كل مجال من مجالات الوقاية، بما يرسي له المنهج الوقائي الحق الخاص به، تحقيقاً لواقعية المنهج القرآني في بيان تكامله في جميع مجالاته، وسيظهر كيف أن القرآن الكريم حقق منهجاً وقائياً متكاملاً، كل مجال على حدة، بمجموع آيات ذلك المجال يستخلص المنهج الوقائي العام منه . وسيكون الحديث عن هذا النوع بشيء من التفصيل، خلال ذلك تضمن حديث القرآن الكريم أساليب متباينة ومتعددة، وبألفاظ، وصيغ، وسياقات، مختلفة، ليبرز مقاصده، ومراداته، بكل وضوح، كما سيظهر ذلك معنا إن شاء الله سبحانه وتعالى .

وعموماً فقد تبوأ المنهج الوقائي من القرآن الكريم حيزاً كبيراً جداً من آياته؛ لأن كل خطابات القرآن الكريم بكافة أساليبه، وقصصه، وأمثاله، ومواعظه، وترغيبه، وترهيبه، وتحذيره، وحثه، ونظمه، وإعجازه، وألفاظه، وتراكيبه، جاءت لترسي ذلك المفهوم بوجه عام، فبه ومن خلاله يتحقق تطبيق شرع الله تعالى وإقامته، بامتثال أمره واجتناب نهيه، كما دعا المنهج الوقائي في القرآن الكريم للاهتمام بكل ما يحفظ جانب المعنويات، الروحية النفسية، والرغبات الشخصية .

ودعا أيضاً للاهتمام بكل ما يحفظ جانب الماديات والاحتياجات الجسدية، من عموم أعمال الجوارح، والحواس، والأعضاء .

وبالتالي فالغايات السامية، والمقاصد الجليلة، أبرزت للتشريع الإسلامي، المتمثل بالدرجة الأولى في كتاب الله تعالى العزيز، هذه المكانة الكبرى، والأهمية القصوى .

لذا فقد قام هذا المنهج الوقائي القرآني من حيث الجملة على أساسين اثنين، كما أنه حوى خصائص جليلة، أظهرت عظم نفعية هذا الشرع المطهر، ومدى غاياته السامية . سأتناول كلاً من تلك الأسس، والخصائص، في ثلاثة مباحث :

الفصل الأول : أساسا المنهج الوقائي في القرآن الكريم وخصائصه وأهميته :

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : أساسا المنهج الوقائي .

المبحث الثاني : خصائص المنهج الوقائي .

المبحث الثالث : أهمية المنهج الوقائي .

المبحث الأول

أساسا المنهج الوقائي في القرآن الكريم

المبحث الأول : أساسا المنهج الوقائي :

تضمن المنهج الوقائي في القرآن الكريم في كل خطاباته أساسين اثنين، اشتملا على خصائص كثيرة ومتعددة، كل أساس منهما اهتم بجانب مهم جداً، جاء ليحققه على الوجه المطلوب، أرسى به ومن خلاله مرادات المنهج الوقائي القرآني، من حيث العموم :

الأساس الأول . كونه منهجاً وقائياً جامعاً، أي أنه حوى جملة المصالح والمنافع، التي تحقق للخلق كل خير، وبر، وحق، ونور، وهدى، ورشاد، فأمر سبحانه عباده أن يستمسكوا بذلك المنهج الحق، ليتحقق لهم إدراك جملة تلك المنافع والمصالح .

إذ المقصد الأول من مقاصد الشريعة الإسلامية، أن كل تعاليمها جاءت جامعة، للخير، والحق، والبر، آمرة به، محققة بذلك عموم المنافع والمصالح الدينية والدنيوية سواء .

والمنهج الجامع يعني أنه يغني الخلق عما سواه، فلا منهج أفضل منه ولا مسلك خير منه، قال تعالى في محكم التنزيل من سورة الإسراء : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ . وأقوم تعني :

قال الشربيني رحمه الله تعالى في تفسيره : "الجامع لكل حق والفارق بين كل ملتبس {يهدي للتي} أي إلى الطريق التي {هي أقوم} أي : أصوب من كل طريق"[1].

[1] الشربيني . السراج المنير . ج٢، ص٢٨٥ .

وقال المراغي رحمه الله تعالى في تفسيره : "إنه يرشد من اهتدى به للسبيل التي هى أقوم السبل، وهى ذلك الدين القيم والملة الحنيفية السمحاء"[1].

وقال السعدي رحمه الله تعالى : "أقوم أي : أعدل وأعلى من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره"[2].

منهج القرآن الكريم الوقائي، منهج جامع؛ لأنه من عند العليم الخبير، الذي خلق الخلق، وهو بهم أعلم، وبما ينفعهم ويضرهم أدرى، ولشؤونهم أحكم، ولأمورهم أصلح ولا ريب .

وفي تفسير قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ . قال صاحب المنار رحمه الله تعالى : "أي لا أحسن من صبغته فهي جماع الخير الذي يؤلف بين الشعوب والقبائل، ويزكي النفوس ويطهر العقول القلوب"[3].

وفي تفسير قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا

---

[1] المراغي . تفسير . ج١٥، ص١٧ .

[2] السعدي . تيسير الكريم الرحمن . ص٤٥٤ .

[3] محمد رشيد رضا . المنار . ج١، ص٣٩٩ .

عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ . قال ابن عاشور رحمه الله تعالى : "فإن ذلك كله من أهم مقاصد الشريعة وفيه جماع صلاح النفس والجماعة"[1].

وفي تفسير قوله تعالى من سورة الأنعام : ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ . قال القاسمي رحمه الله تعالى : "كثير المنافع والفوائد، لاشتماله على منافع الدارين، وعلوم الأولين والآخرين، وما لا يتناهى من الفوائد"[2].

وفي تفسير قوله تعالى من سورة الحج : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ . قال أبو بكر الجزائري : "{واعبدوا الله} أي أطيعوه فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه معظمين له غاية التعظيم خاشعين له غاية الخشوع {وافعلوا الخير} من كل ما انتدبكم الله إليه ورغبكم فيه من أنواع البر وضروب العبادات {لعلكم تفلحون} أي لتتأهلوا بذلك للفلاح الذي هو الفوز بالجنة بعد النجاة من النار"[3].

وفي تفسير قوله تعالى من سورة الجن : ﴿ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ ﴿٢﴾ ﴾ . قال السعدي رحمه الله تعالى : "والرشد : اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم"[4].

---

[1] ابن عاشور . التحرير والتنوير . ج٢، ص١٢٨ .

[2] القاسمي . محاسن التأويل . ط١، دار الكتب العلمية . ج٤، ص٤٢٩ .

[3] أبو بكر الجزائري . أيسر التفاسير . ج٣، ص٥٠١ .

[4] السعدي . تيسير الكريم الرحمن . ص٨٩٠ .

وآيات كثيرة غيرها، جاءت لترسي هذا المعنى والمضمون، حول موضوع جامعية الشريعة الإسلامية، واحتوائها على كليات المصالح والمنافع .

وفي الحديث النبوي الشريف الذي رواه عمر رضي الله تعالى عنه بقوله : (**بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال : صدقت، قال : فعجبنا له يسأله، ويصدقه، قال : فأخبرني عن الإيمان، قال : أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره، قال : صدقت، قال : فأخبرني عن الإحسان، قال : أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، قال : فأخبرني عن الساعة، قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل، قال : فأخبرني عن أمارتها، قال : أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان، قال: ثم انطلق فلبثت ملياً، ثم قال لي : يا عمر أتدري من السائل؟ قلت : الله ورسوله أعلم، قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**)[1]. حديث عظيم النفع بيّن حقيقة الإسلام والإيمان والإحسان فحوى بذلك جماع أمر المسلم، فيما يعرف بمراتب الدين الثلاثة، التي جاءت على كل متعلق من متعلقات الدين، وما يرتبط بها،

[1] رواه مسلم، (٨) . والعالة، جمع عائل، وهم الفقراء .

فتضمنت العقائد والأحكام والحدود والعبادات والمعاملات والآداب والفضائل وما إلى ذلك .

والخلاصة : فقد اتضح أن القرآن الكريم قد جاء بمنهج جامع بكل معنى الكلمة، جمع الله تعالى فيه لعباده عموم المصالح والمنافع، الدينية والدنيوية سواء . وتحقق ذلك يعني : غاية نفعية هذا التشريع الإسلامي السامي .

الأساس الثاني . كونه منهجاً وقائياً مانعاً، منع الله تعالى به عن الخلق عموم المفاسد والمضار، والرذائل والقبائح، حين نهى سبحانه عباده عن اقترافها، أو الاقتراب منها، فتحقق بذلك النهي؛ درء جملة المفاسد والمضار، قال تعالى في سورة المائدة : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ . قال الشربيني رحمه الله تعالى في تفسيره : "حكم عام في نفي المساواة عند الله تعالى بين الرديء من الأشخاص والأعمال والأموال وجيدها رغب به في صالح العمل وحلال المال"[1].

إذن فالمقصد الثاني من مقاصد الشريعة الإسلامية، هو أن كل تعاليمها جاءت مانعة عن الخلق كل مضرة، ومفسدة، تفسد عليهم حياتهم الدنيوية العاجلة، وحياتهم الأخروية الآجلة .

ولهذا جاء القرآن الكريم محذراً في آيات كثيرة، من عاقبة الانحراف عن مراد الله تعالى، وعن منهجه الحق الذي وضع لعباده . قال تعالى في محكم كتابه العزيز من سورة الأنعام : ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ

[1] الشربيني . السراج المنير . ج١، ص٣٩٩ .

بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ . قال المراغي رحمه الله تعالى في تفسيرها : "وإن هذا القرآن الذي أدعوكم إليه وأدعوكم به إلى ما يحييكم، هو صراطي ومنهاجي الذي أسلكه إلى مرضاة الله ونيل سعادة الدنيا والآخرة، حال كونه مستقيماً لا يضل سالكه، ولا يهتدى تاركه، فاتبعوه وحده، ولا تتبعوا السبل الأخرى التي تخالفه وهى كثيرة، فتتفرق بكم عن سبيله، بحيث يذهب كل منهم فى سبيل ضلالة ينتهى بها إلى الهلكة، إذ ليس بعد الحق إلا الضلال . والخلاصة- إن هذا صراطي مستقيماً لا عوج فيه، فعليكم أن تتبعوه إن كنتم تؤثرون الاستقامة على الاعوجاج وترجحون الهدى على الضلال"[1].

وفي تفسير قوله تعالى من سورة الأعراف : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ . قال السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره لهذه الآية : "بيّنا فيه جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق {عَلَى عِلْمٍ} من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح، ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور، فتجهله بعض الأحوال، فيحكم حكماً غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء، ووسعت رحمته كل شيء"[2].

وفي تفسير قوله تعالى من سورة هود : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ . قال صاحب المنار رحمه الله تعالى : "هذا السياق تفصيل للأوامر والنواهي التي هي ثمرة الاعتبار بما كان من سيرة الأمم مع الرسل : من جحدوا فأهلكوا . ومن آمنوا

[1] المراغي . تفسير . ج٨، ص٧٣ .

[2] السعدي . تيسير الكريم الرحمن . ص٢٩١ .

ثم اختلفوا وتفرقوا، فمن جمع بين هذا الأمر والنهي كمل إيمانه، وما بعدهما تفصيل لهما"[1].

وفي تفسير قوله تعالى من سورة الحشر : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ . قال أبو السعود رحمه الله تعالى : "أي نسوا حقوقه تعالى وما قدروه حق قدره ولم يرعوا مواجب أوامره ونواهيه حق رعايتها {فأنساهم} بسببِ ذلك {أَنفُسِهِمْ} أي جعلهم ناسين لها حتَّى لم يسمعوا ما ينفعها ولم يفعلوا ما يخلِّصُهَا أو أراهم يوم القيامة من الأهوال ما أنساهم أنفسهم"[2].

والفسق : الخروج عن المنهج الحق، وهذا يعني الوقوع في كل مكروه، ومهلك، والله مطلع على كل شيء، من كل إنسان، قال تعالى من سورة البقرة : ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾ . قال ابن القيم رحمه الله تعالى في تفسيره : (واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه أن تتعدوا ما حدّ لكم، فإنه مطلع على ما تسرون وما تعلنون، واعلموا أن الله غفور حليم ولولا مغفرته وحلمه لعنتم غاية العنت، فإنه مطلع عليكم، يعلم ما في قلوبكم، وما تعملون، فإن وقعتم في شيء فما نهاكم عنه فبادروا إليه بالتوبة والاستغفار فإنه هو غفور حليم)[3].

---

[1] محمد رشيد رضا . المنار . ج١٢، ص١٣٦ .

[2] أبو السعود . إرشاد العقل السليم . ج٨، ص٢٣٢ .

[3] ابن القيم . التفسير القيم . ط١، دار ومكتبة هلال . ص١٥٠ .

والمنهج المانع يمنع من الوقوع في الشر، والفساد، والباطل، والمنكر، والظلام، والضلال، والسوء، والمكروه، يمنع من الوقوع في الجريمة، والخطأ، وكل أسباب الهلاك، والردى، به ومن خلاله وضع الدين الحق سياجاً عن كل ذلك، وبالتالي ضمن السلامة للجميع .

أما متى حصل المكروه؛ فالمنهج الوقائي المانع، قد شرّع كل تشريع يزجر به الخلق عن ارتكاب الخطأ مهما كان؛ بحسبه، دون تهاون، أو تفريط في ذلك، وإلا لتجرأ العباد على تجاوز الحدود وارتكاب المعاصي .

لذا وجد أن المنهج الوقائي القرآني في أساسه المانع، قد اعتمد أربع خطوات، في تحقيق مانعيته . هي :

أولاً- شرّع كل ما من شأنه حماية الإنسان من عموم الشرور والمنكرات .

ثانياً- بيّن مدى صيانة ذلك التشريع لعموم الخلق، وضمان غاية نفعيتهم .

ثالثاً- جرم كل من وقع في منكر، أو شر، وبيّن أن هذا الفعل يعتبر جرماً يعاقب عليه كل من ارتكبه ووقع فيه .

رابعاً- عاقب كل من حصل منه ذلك الجرم ووقع تحت طائلة عقوبته .

كل تلك الخطوات اعتمدها، ليخوف، ويردع، ويزجر، عن الوقوع في الذنوب، والمعاصي، والآثام، بأنواعها .

وفي الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ : (**من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**)[1]. فمفاد هذا الحديث هو وجوب التعاون فيما بين المسلمين للقضاء على كل منكر،

[1] رواه مسلم، (٤٩) .

وهذا في حد ذاته مانع للشر بكل أوجهه، وقطع للرذيلة بجميع أساليبها، وتجفيف لمنابع الجريمة بكافة صورها .

والخلاصة هي أن المنهج الوقائي بأساسه المانع؛ تحقق به الحفاظ من كل موبق، وضمان السلامة من كل مهلك، حين أرسى كل ما من شأنه حفظ الضرورات، مبتعداً بذلك عن كل جرم، وحرام، وفسق، وخروج، ومنكر، ونشوز، يمكن أن ينشأ جراء المخالفة له، ولمضمونه الذي جاء به .

المبحث الثاني

خصائص المنهج الوقائي في القرآن الكريم

المبحث الثاني : خصائص المنهج الوقائي :

للمنهج الوقائي خصائص ذاتية كثيرة ومتعددة، كل خصيصة منها تبرز جانباً مضيئاً من جوانب محاسنه، وغايات مقاصده، أظهرت حقيقة المقاصد العليا، والغايات السامية، التي تضمنها وجاء بها ولها .

وفي ذلك دليل على غاية تمامه ومنتهى كماله ومدى نفعيته لعموم الخلق، في الدارين سواء، ودليل على مدى استيعابه وشموله لعموم الخلق، فكان منهجاً حقاً لا يتطرقه الفوت ولا يعتريه النقص، لم يغفل عن شيء أبداً، ذلك هو المنهج الرباني الإلهي الحق . وهذا في حد ذاته علامة على أنه من عند العليم الخبير، الذي خلق فسوى، وقدّر فهدى، ومنهج فأوعى، وشرّع فحوى . تلك الخصائص هي أنه :

١- منهج عليم[١]، في دقائقه : بخفايا النفوس، ومكنون القلوب، وتطلعات العقول، محققاً كل ما من شأنه تلبية الرغبات النفسية، والقدرات العقلية، على الوجه الصحيح المتوازن، محافظاً عليها ضامناً لسلامتها . قال تعالى في سورة الملك :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ .

وتتجلى خصيصة العلم الرباني في المنهج الوقائي القرآني، حين يلاحظ أن كافة تعاليمه استغرقت كافة شؤون الحياة، ومراحل الإنسان فيها، فلم يغفل عن شيء منها، فكانت تلك التشريعات والتعاليم دقيقة تماماً، لدرجة موافقة كل ما عند الإنسان من رغبات، واحتياجات عمرية، وبالتالي فلا يمكن بحال أن يوجد فيها شيء من قصور أبداً، وقد ثبت مدى نفعيتها لعموم الخلق دون أدنى شك .

[١] النسبة هنا مجازية، لأن العلم صفة ذاتية فتكون نسبته لصاحبه في الحقيقة، وبالتالي فالمقصد : منهج رباني عليم .

فالشارع العليم مثلاً حين شرع الزكاة؛ والتي تعد مجالاً وقائياً عاماً للمسلمين كافة، حين يرتبطون برباط التكافل الاجتماعي فيما بينهم، راعى الشارع العليم الفروق بين الأموال، ومقاديرها بحسب أنواعها، وراعى أحوال المحتاجين من أبناء المجتمع المستحقين للزكاة على الوجه الصحيح، وراعى بلوغ الأنصبة، وتمام الحول في رؤوس الأموال . وكل ذلك عن علم وإحاطة تامة بدقائق الأمور، لتحقق الغايات السامية، من مقاصد التشريع، ولا يكون ذلك إلا في تشريع رباني محيط عليم .

٢- منهج رحيم في وضعه : والرأفة بالخلق، مراعياً مقتضى أحوالهم، لا مشقة فيه، ولا تكلف، ولا عسر، ولا عنت . فجمع بذلك الخلق على خير مبادئ وقيم، حققت لهم الحياة المطمئنة الآمنة، في ظل تعبديات سهلة، وأحكام نافعة، ميسرة، وعلاقات آصرة، يأخذ بعضهم بيد بعض إخوة متحابين فيه سبحانه . قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ .

وتتجلى خصيصة الرحمة في المنهج الوقائي القرآني، حين نرى أن كل تشريعاته قد اتسمت بغاية السهولة، واليسر، والرحمة، والرأفة بالعباد، فقَبِل سبحانه وتعالى من خلقه عبادتهم، على قدر ضعفهم، وبحسب طاقتهم وعجزهم، ومدى استطاعتهم، من غير مشقة أو حرج، لا على قدر عظمته، ومدى استحقاقه جل في علاه . فالشارع الرحيم مثلاً حين شرع الصلاة المفروضة، والتي تعد أكبر مجال وقائي للمسلم، بدنياً ومعنوياً ينعم في ظلها، أحاطها بجملة من الأحكام، التي تجعل العبد يؤديها بحسب استطاعته، حال ضعفه أو حال مرضه، أو حال سفره، فلم يجعلها حالة واحدة تقع عليه، وإنما رتب الفعل على قدر الاستطاعة، وكذلك سائر الأعمال من عبادات ومعاملات . وكل ذلك رحمة لهم وشفقه بهم ورفعاً للمشقة، ودفعاً للحرج . ذلك هو التشريع الرباني الرحيم بكل معاني الكلمة .

٣- منهج حكيم في تشريعاته : وفي وضع الشيء في محله، حوت كل تعاليمه وتشريعاته، عموم المصالح والمنافع، ودرأت عموم المفاسد والمضار . وراعى أحوال العباد ومتطلباتهم، فلم يكلفهم بما هو شاق، ولا مرهق، ولا ما هو فوق طاقتهم، وليس في وسعهم . قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ .

وتتجلى هذه الخصيصة حين نقف على الحكمة التشريعية لكافة تعبدياته ومعاملاته، وحين يلاحظ فيها غاية المقاصد السامية الرفيعة، بما يحقق النفع، ويدفع الضرر . فالشارع الحكيم حين شرع الصوم المفروض مثلاً، والذي يعد أكبر مدرسة وقائية للمسلم، راعى حقيقة تكوين الإنسان وتركيبته، المكونة من روح وجسد، فاهتم بمصلحة البدن المادي بما يحققه الصوم من صحة جسدية له، واهتم بمسألة الروح المعنوية بما يحققه الصوم من سمو أخلاقي لها . وهذا لا تجده بحال، إلا في ظل تشريع عمومي حكيم، لا يغلّب مصلحة شيء على شيء؛ لأنه يعرف كيف يشرّع، ولم يشرع، ومتى يشرع، وبأي شيء يشرع ؟

٤- منهج قويم في سلوكياته : وافق كل مراحل الإنسان العمرية، والمرحلية، بما يناسب وضعه، وسنّه، حال ضعفه، وحال قوته، ذكراً كان أم أنثى، وبما يحقق له كل مصلحة، ويدرأ عنه كل مفسدة، لا عنف فيه ولا تصلب ولا قسوة ولا تحجر، راعى المصلحة في مظانّها؛ وفي كل وقت وحين، بحسبها لا يفوته الفوت . قال

تعالى في سورة الروم : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴿٤٣﴾ ﴾ . دين قيّم بمنهج قويم وشرع مطهر .

وتتجلى هذه الخصيصة حين يلامس في كل تشريعاته الشمولية والاستغراق، لكل ما حواه من تعاليم، وحين يتأكد تحقق الثمرات اليانعات، والآثار الطيبات، في سلوكيات أتباعه . وبالتالي فهو قيم لكل ما من شأنه البلوغ بالعباد إلى حيث منازل الرضا . فالشارع القويم مثلاً حين أمر بحسن الخلق، والتي يعد مجالاً وقائياً لعموم الأمة المسلمة، أقام سلوك الخلق على أساس إشاعة الفضيلة، ونبذ الرذيلة، ليعم التعامل الراقي الرفيع فيما بين المجتمعات، فينعمون في ظل علاقات مثمرة، ذات آثار طيبة . وهذا لا يكون إلا في ظل تطبيق تشريعات وقائية حقيقية آتت أكلها، وجنى الجميع ثمراتها، فرضوا بها سلوكاً اجتماعياً حضارياً، يضبط علاقتهم فيما بينهم .

٥- منهج متوازن في تنظيمه : قائم على الاعتدال، والعدالة، والمساواة، وتحقيق النفع للجميع بذات الدرجة، لا ميل فيه، ولا مين، ولا جنوح، ولا انحراف . فجمع بذلك بين القيم المادية والمعنوية للإنسان، وحقق قيم العدالة، والمحبة، والإخاء، والمساواة، بكافة صورها فيما بين عموم البشر . قال تعالى في سورة الشورى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴿١٧﴾ ﴾ . والتوازن البشري على وجه الأرض لا يكون إلا على مراد ربنا تبارك وتعالى وبمنهجه الحق .

وتتجلى هذه الخصيصة حين يلاحظ أن كل تشريعاته ذات طابع معتدل، بما يضمن للعباد كل خير، ويكف عنهم كل شر، لا تطرف فيه أبداً، لا غلو ولا تعقيد، ولا ضرر ولا إضرار، ولا إفراط ولا تفريط . وإنما اعتدال، وقصد، ووسطية، في جميع تعاليمه . فالشارع الأعلى تبارك وتعالى من حيث البدء أقام كل تشريعاته

على أساس التوازن، والوسطية، والاعتدال، في كل تعاليمه، وأوامره ونواهيه والتي ضمن بها تحقق الوقاية لكافة البشر، وسلامتهم وحمايتهم من طرق الضلال، ودروب المهالك، وسبل الردى . تشريعات دقيقة متوازنة، في غاية الدقة، لا يمكن أن ينتج عنها إلا كل خير وبر وصلاح وفلاح مؤكد لكافة البشر مسلمين وغير مسلمين .

٦- منهج تعليمي تربوي في هداياته : من لدن حكيم خبير، حين علّم عباده ودلهم على كل خير، وحين اختار لهم أفضل منهج حق، ربّي سبحانه خلقه عليه . فجمع لهم بذلك كل خير، وبر، ونور، وهدى، وصلاح، ورشاد . قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ . لأنه كلام ربنا جل في علاه الذي نزل بمراده سبحانه هادياً الخلق لما يحبه عز وجل ولما يريد تعالى .

وتتجلى هذه الخصيصة حين علّم ربنا تبارك وتعالى خلقه كل شيء من أمور دينهم ودنياهم، ولم يتركهم هملاً يتخبطون فيها، علمهم كل ما من شأنه صلاح أمورهم . والشارع الأعلى سبحانه حين جاء بكل هذه التشريعات، التي حققت الوقاية في عموم المجالات لكافة الخلق، تولى تعليمهم وتربيتهم سبحانه بنفسه، بما جاء على لسان نبيه الكريم ﷺ ولم يجعل ذلك متروكاً لعقولهم المتباينة، لتعصف بهم ولتهلكهم في عالم الاختلافات، غير منتهي أبداً . وكفى به عز وجل معلماً ومربياً وهادياً ودليلاً وحسيباً لخلقه سبحانه .

٧- منهج اجتماعي في دعوته : دعا لتكوين العلاقات المثمرة، فيما بين البشر على الوجه الصحيح، على مستوى الأفراد، والمجتمعات أيضاً . فجمع بذلك بين أفراد الأمة الواحدة، وربط بعضهم ببعض على أساس الدين، فلا تمايز إلا به، ولا

تفاضل إلا بمدى التمسك بمنهجه . قال تعالى في سورة الحجرات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴿١٣﴾ ﴾ . دين يجمع على مراد ربنا سبحانه فيحقق الأخوة فيه جل جلاله .

وتتجلى هذه الخصيصة حين جاءت كل تشريعاته آمرة بكل ما يحقق التواصل البشري، وينمي العلاقات فيما بين الأمم والشعوب، على أساس نشر قيم العدالة الاجتماعية، بكافة صورها من محبة، وإخاء، ومساواة، وتكاتف، وتعاطف .

والشارع الأعلى جل جلاله جعل جميع التشريعات الربانية، تحقق فيما بين كافة البشر صلات حقيقية، وروابط دينية، وعلاقات دنيوية، تحقق مفهوم التعايش السلمي بمفهومه الصحيح، ولا يكون ذلك إلا بالإسلام دين السلام .

٨- منهج واقعي منصف في حقيقته : مادي ومعنوي في تكامله، لا خيال فيه، ولا جنوح، ولا شطح، ولا خروج، جاء بكل ما يحقق المصلحة والمنفعة بالفعل، مراعياً الرغبات والاحتياجات، بلا حرج ولا صلف . قال تعالى في سورة الحج : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ ﴿٧٨﴾ ﴾ . دين يهذب سلوكيات النفس وانفعالاتها، بحسب ما شرع لها ربها وخالقها العظيم سبحانه، حتى لا تضر بذاتها، أو تضر بالآخرين، في حمأة الانطلاقات العارمة، والحريات المفرطة، والتصرفات الهوجاء .

وتتجلى هذه الخصيصة في أن كل تشريعات المنهج الوقائي جاءت مسايرة لواقع الحياة، ضامنة توفير احتياج البشر، بحسب الزمان، والمكان، والمرحلة، والحال، فكانت كافة التشريعات منصفة للإنسان تماماً، وموافقة لواقع حياته، ولهدفه منها وفيها، وليست مجرد مثاليات عاجية بعيدة المنال، مشغلة للفكر والبال، وحسب .

فالشارع الأعلى جل في علاه حين ضمّن كل تشريعاته ما حقق به الوقاية الحقيقية للخلق كافة، راعى حقيقة تكوينهم البشري . فربط بين أمرين اثنين، ومزجهما سواء، ربط بين مسألة مدى احتياجاتهم، ومسألة أن تشريعاته جاءت على وفق ما يحقق نفعهم بالضبط، في نظرة واقعية منصفة متكاملة لا يتخللها أدنى نقص؛ لأنها تشريعات العليم الخبير .

٩- منهج ذو صيانة في أهدافه : جاء ليحمي الإنسان من شرور نفسه، قبل أن يحميه من أي ذي شر، فصان بذلك روحه وجسده، حين وفر له كل ما ينفعه، ومنع عنه كل ما يضره، وحين شرع جملة من الحدود، ليحفظ بها حركة المعيشة، في ظل محيط واضح المعالم، يحدد المهمات، ويضبط التصرفات . قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ . دين كالسياج للفرد؛ يحميه ويحمي منه، والسياج للمجتمع أيضاً حين حفظ كافة الحقوق وإقامة الحدود فيما بين الأفراد .

وتتجلى هذه الخصيصة حين تحقق في كل تشريعاته وأهدافه الصيانة الحقيقية لعالم البشر، والصقل الدقيق لكافة تصرفاتهم فيها، لضمان أفضل حياة معيشية ممكنة في الدنيا، ولضمان بلوغ جنات النعيم في الآخرة .

والشارع الأعلى جل جلاله ما جاء بهذه التشريعات من حيث الأصل إلا ليحقق نفع جميع البشر على الوجه الصحيح الأكيد، وليضمن سلامة كافة الخلق، ووقايتهم، في ظل شرع رباني صيّن، تام، لا صيانة حقيقية للبشر ولا حماية إلا به، وبتعاليمه السمحة .

١٠- منهج فطري في أساسه : جاء بكل ما وافق الفطرة السليمة بالضبط، منسجماً مع ما بداخل الإنسان، من قيم، ومعنويات، ومتوافقا لما في نفسه من

أصول، ومعتقدات، قال جل ربنا في علاه في سورة الروم : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

وتتجلى هذه الخصيصة حين يلاحظ أن أصول الفطرة السليمة، موجودة في كل إنسان، مطمورة في داخل نفسه قيمها، وضوابطها، وقيودها، مما تجعله دوماً يحاول الظهور بالمظهر اللائق الحسن ليبقى نقي القلب، والقالب على السواء، ولهذا جاء في الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ : (**عشر من الفطرة : قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء" قال زكريا : قال مصعب : ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة زاد قتيبة، قال وكيع : "انتقاص الماء : يعني الاستنجاء**)[1] .

والله سبحانه قد جعل في نفس كل مخلوق، فطرة مطمورة فيه، دالة على مراده تعالى تردّ الإنسان إلى الأصل الذي لأجله خلق، وتهديه إلى المنهج الذي به يسعد في دنياه، وينجو، ويفوز، في أخراه .

١١- منهج وسطي في تعاليمه : حين شرع، وقرر، وأمر، ونهى، بكل وسطية منضبطة، فلا تساهل مخلّ، ولا تشدّد مملّ، جاء ليرشد الخلق إلى حيث الرشاد، والسداد، ومواطن الهداية من رب العباد . قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴿١٤٣﴾ ﴾ .

وتتجلى هذه الخصيصة حين يلاحظ وسطية المنهج الحق مشاعة في كل شيء، من عقائد، وعبادات، وتعاملات، وتشريعات، وتعاليم، فلا تصلّب، وتشدّد ولا

[1] رواه مسلم، (٢٦١) . والبراجم، جمع برجمة، وهي العقد والمفاصل ولا سيما الصغيرة .

تساهل وتفلّت . فالشارع الأعلى سبحانه أراد أن يكون منهجه منهجاً يوافق القصد والاعتدال، بلا ميل أو انحراف، عن الصراط المستقيم، والطريق القويم .

١٢- منهج تنموي في مطالبه : من أهم ما دعا إليه، وجاء به وله، الحفاظ على مقدرات الإنسان وطاقاته، حين جاء بكافة المصالح والمنافع البشرية، محققاً بذلك التنمية البشرية بأسمى معانيها، وحين درأ عنهم جملة المفاسد والمضار، ليحميهم من شرور أنفسهم، ومن شرور بعضهم بعضاً . قال سبحانه في سورة يس : ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ ﴾ .

وتتجلى هذه الخصيصة حين يظهر وبكل وضوح كيف أن كل أوامر ونواهي المنهج الوقائي الحق، جاءت لتنمية كل ما يتعلق بجنس الإنسان، وعالم البشر، بلا استثناء .

١٣- منهج إرتقائي في غاياته : جاء ليرتقي بعموم الخلق إلى حيث الكمال البشري، والسعادة الأبدية في الدارين، ويحقق رفاهية الإنسانية جمعاء، لأنه من لدن حكيم خبير . قال تعالى في سورة البينة : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥ ﴾ .

وتتجلى هذه الخصيصة حين يتأكد أن القرآن الكريم قد جاء آمراً بكل الفضائل، ناهياً عن كافة الرذائل، محبذاً حسن الخلق، حاثاً على المكارم، داعياً للمحاسن، محققاً كل خير، داحضاً كل شر . فتحقق بذلك رفعة الإنسانية من كل وجه، وارتقى بهم في حياتهم في كل مناحيها ومجالاتها، ولا وجود لمنهج اتصف بمثل ما اتصف به المنهج الوقائي القرآني أبداً .

١٤- منهج سامٍ في شعائره : كل شعيرة منها لها ثمرات، وآثار، وفوائد، متحققة للخلق، جاءت لهدف ومقصد معلوم، لا يقوم غيرها به . قال تعالى في سورة الحج : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

وتتجلى هذه الخصيصة حين يشعر المسلم بأن لكل شعيرة من شعائر الإسلام؛ ولا سيما التعبدية أثراً ظاهراً وملحوظاً في سمو أخلاق الناس، وأنها جاءت لتعالج جانباً من جوانب حياتهم، كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، لكل منها أهداف، ومقاصد جليلة عليا تفوق الحصر .

١٥- منهج لائق في مظاهره : وفي كل تعاليمه، حين أمر بوجوب سلامة الظاهر والباطن وحسنهما، وحين اهتم بضرورة نقاء الروح والجسد، ليكون المسلم دائماً متجرداً من غوائله، وشروره التي قد تهوي به إلى حيث الأذى، والرذيلة، الظاهرة والباطنة، سواء المادية أم المعنوية . قال جل في علاه في سورة البقرة : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ .

وتتجلى هذه الخصيصة حين يلاحظ أن كل مأمورات ومنهيات الشارع الحكيم، حافظت على سلامة الروح والجسد، وطهارتهما، ونقائهما، من كل ما قد يدنسهما، أو يضر بهما من قريب أو بعيد .

١٦- منهج كامل تام في عمومه : لأنه من عند إله الحق والصدق، ورب الكون والخلق، لا يتخلله أدنى نقص في منهجه وتعاليمه، ولا تفوته أية فائتة في أحكامه وتشريعاته، حاز بذلك الكمال التشريعي . قال تعالى في سورة المائدة : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴿٣﴾ ﴾ .

وتتجلى هذه الخصيصة حين يتبين كيف أن جملة تشريعاته، تامة ومتكاملة بكل معنى الكلمة، لا يتخللها نقص، ولا يتداركها فوت . وتمامها يأتي من حيث الاستغراق للجميع، مع بلوغ غايات النفع للعباد، مما شرعه سبحانه لعباده، أما كمالها فيأتي من حيث الشمول، وإدراك المنتهى، في تسامي التشريع الحكيم .

فالشارع الأعلى جل وعز وضع هذا الدين الحق، والشرع الصدق قبل أن يخلق العباد، فقبل أن يأمرهم بتطبيق تعاليمه، وضع لهم القالب التشريعي التام المتكامل، بما لا نقص فيه ولا خلل، ولا خطأ ولا زلل، فتحقق بذلك لعموم البشر وقايتهم، على الوجه التام، وبكل دقة، وما ذاك إلا من لدن عليم خبير سميع بصير .

والخلاصة هي أن القرآن الكريم منهج وقائي عام، اتصف بخصائص حققت كل ما من شأنه نفع البشرية ككل، بما يحقق لهم السعادة في الدارين .

وهو ليس منهجاً شرعياً دينياً وحسب، بل هو منهج فكري خُلُقي؛ حياتي، شمولي النفع، عمومي المصلحة، لخيري الدنيا والآخرة .

كل هذه الخصائص الآنفة الذكر هي الخصائص الذاتية للمنهج الوقائي القرآني، واصفة حاله، مبينة حقيقته . أما خصائصه من حيث الإستيعاب والشمول . فهي :

أولاً- كونه منهجاً إنسانياً : تام في احتوائه لعموم منافع، ومصالح الجنس البشري الإنساني، مانعاً عنه جميع المضار والمفاسد، على كافة المستويات الإنسانية . فهو :

١- منهج فردي : جاء بكل ما يحقق السعادة للفرد، على المستوى الشخصي، ويقيه شرور نفسه، ويضمن له السلامة في الدنيا والآخرة . قال تعالى في سورة لقمان : ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ .

هذا المنهج الوقائي القرآني الفردي، استوعب كل أفراد المجتمع على اختلاف الجنس، فقد تكلم عن الرجل بوصفه رجلاً، حين حماه من الفتنة، بوجوب حفظه لبصره وفرجه، إلا على الزوجة، ومن هي في حكمها من ملك اليمين، وحين حقق له القوامة على المرأة، وحين ألزمه بحقوق النفقة، والرعاية، والعناية لأهل بيته، وحين أمره بوجوب قيامه بحق النصح لهم والوقاية من كل مكروه، وحين جعل له ضعف نصيب الأنثى حال الميراث؛ لأنه هو القيم على الأسرة، وحين تعامل معه بوصفه الراعي المسؤول الأول عن مصالح الأسرة المؤمنة، وما إلى ذلك من تنظيمات كثيرة في الحياة الدنيا .

كما تحدث عن المرأة، وضمن لها كل ما يحقق لها الحياة السعيدة، حين ألزم الزوج بالنفقة عليها لتتفرغ هي لبيتها وأهل بيتها، وحين بيّن لها أن الرجل هو صاحب القوامة الذي يجب عليها طاعته، وحين أمرها بوجوب لزوم بيتها بعداً عن التعرض للفتن، وحين أمرها بحفظ بصرها وفرجها وفراش زوجها، وحين نهاها عن التبرج والسفور والاختلاط بالأجانب، وحين أمرها بحسن التبعل لزوجها، وبوجوب رعايتها لأولادها، وحين حذرها من سوء عاقبة الخيانة الزوجية ومن إغضاب الزوج؛ لأن ذلك في حقيقته إغضاب لله تعالى قبل الزوج، وحين فرض لها المهر حال الزواج، واعتبر ذلك حقاً لها، وحين أعطاها حرية التصرف الكامل في مالها، وما إلى ذلك من وقائيات كثيرة .

كما تكلم عن الأولاد، فحفظ لهم كل ما يحقق مصالحهم، فأمر الوالدين بوجوب القيام عليهم بحق الرعاية والوقاية والاهتمام بهم، وحذر من الافتتان بالولد، وأمر الأولاد بوجوب طاعة الوالدين والبر بهما والحذر من العقوق، وبيّن أن الولد قرة عين لوالديه مما يستلزم عليهم القيام بواجب النصح، والتربية، والعناية، والرعاية،

وفرض للأولاد من الحقوق ولا سيما المواريث ما يضمن به حقهم فيها، وبيّن أن للذكر ضعف الأنثى لما يستقبله في حياته من تكاليف أسرية، وما إلى ذلك من تنظيمات .

٢- منهج أسري : تناول بتعاليمه كل متطلبات الأسرة المسلمة، بما يضمن لها الاستقرار، والراحة، والوئام، في حياة زوجية، وأسرية متوازنة مطمئنة، وعناية المنهج الحق بالفرد؛ لأنه عضو فاعل في الأسرة، وصلاح الأسر يعني صلاح المجتمع بوجه عام ولا ريب . قال تعالى في سورة النساء : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾ ﴾ .

وعناية المنهج الحق بالأسرة؛ لأنها اللبنة الأساسية في صلاح المجتمع، وهي في حقيقة وضعها كما لو كانت مجتمع مصغر، فرسم لها خطوطاً عريضة ضمن بها الحياة السعيدة بحق، حين حدد القيّم على الأسرة حتى لا ينفرط عقدها بصراع لا حقيقة له، وحين أمر بوجوب حفظ الفروج وغض الأبصار حتى لا تحصل الفتنة فيزهد شريك الحياة في شريكه، وحين أمر بوجوب النفقة على الطرف القادر على صراع الحياة الساعي على تحصيله بحسب الطاقة والوسع، وحين أمر بوجوب صيانة البيت المسلم من كل ما يضر به، وحين أمر بوجوب طهارة النسل وسلامة الأعراض، وحين أمر بوجوب حسن اختيار شريك الزوجية، وحين بيّن للزوجين ما يجب عليهما حال النشوز والخلاف الزوجي، وبين كيفية الصلح، وحين أمر الزوج

بوجوب العدل بين نسائه إن كان له أكثر من واحدة، وما إلى ذلك من سائر الأمور لحياة وقائية أسرية منتظمة .

٣- منهج أمة : استوعب كل أفراد الأمة الواحدة، على اختلاف شعوبها، وتعدد أعراقها، حين ألغى كل رباط سوى رباط الإيمان والدين الحق، الذي حفظ به للجميع كافة متطلبات الحياة السعيده الهانئة متى طبقوا تعاليمه، في ظل قيم العدل، والمساواة، والمحبة، والإخاء، والترابط الديني القوي، والعلاقات الإيمانية الوطيدة . قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿١١٠﴾ ﴾ .

هذا المنهج الوقائي القرآني الأممي حرص كل الحرص على وجوب انصهار المؤمنين في بوتقة الأخوة الإسلامية على الوجه المطلوب، الذي يحقق الوحدة فيما بينهم، فلا حزبية ولا تكتلات، ولا فرق ولا جماعات، تفتت كيان الأمة الواحدة، وتشتت شملها، وتفرق جمعها، وتذهب بمصالحها، خلف أطماع الحزبيات، والخلافات المقيتة، وكفى بذلك وقاية من الضعف والهوان وأسباب التشتت والفرقة والاختلاف .

٤- منهج عالمي : تعدى نفعه الأمة المسلمة الواحدة، ليشمل بتعاليمه العالمين أجمعين، في رباط إنساني عام، فريد من نوعه، فيما بين مجتمعاته المتفرقة . قال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ .

ولهذا جاء في الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ : (**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة، وأعطيت**

الشفاعة)[1]. أفاد هذا الحديث أن محمداً ﷺ ليس نبياً للعرب وحسب، وإنما هو رسول عالمي الدعوة، وإلى قيام الساعة، وجهت دعوته إلى الناس كافة، دون استثناء لأحد، لينتشل الإنسانية من ظلامها، وضلالها، وسفالها، وشرورها، إلى حيث نورها، وهداها، ورفعتها، وخيراتها، بهذا الدين الحق والمنهج الصدق .

هذا المنهج الوقائي القرآني العالمي رسم للعالم أجمع منهجاً حقاً، شمل سائر التنظيميات والقوانين، التي من شأنها حماية البشر من شرورهم، وتحقيق مصالحهم متى تمسكوا به .

لذا كان من جملة مصادره التشريعية مفهوم المصالح المرسلة، التي لا تقف عن حد الزمان والمكان، وإنما أرسلت لتبقى محتوية لمصالح البشر، زماناً ومكاناً، مراعية لمقتضى الحال والوضع . وكفى بذلك منهجاً وقائياً حقاً .

ثانياً- كونه منهجاً كونياً : فاقت عموم تشريعاته، وجميع تعاليمه، الجنس البشري الإنساني، لتشمل كافة مخلوقات الكون وعوالمه، فشمل بذلك :

١- عالم الجن : حين تأكد أن تشريعات المنهج القرآني تعدت الإنسان، لتشمل العالم الخفي، بما يضمن لهم الحياة السعيدة في الدارين سواء، فرسول الله ﷺ خاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام، وقد بعث لعموم الثقلين سواء . قال تعالى في سورة الأحقاف : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

[1] رواه البخاري، (٣٣٥) و (٤٣٨) .

أن المنهج الحق والشرع الصدق قد شمل عالم الجن، وقد حوت تشريعاته ما يحقق لهم النفع والمصلحة، ويدرأ عنهم المضرة والمفسدة، كما حققه لعالم الإنس . لذا جاء في الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ للجن : (**لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً، وكل بعرة علف لدوابكم، ثم قال ﷺ : فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم**)[1] .

٢- عالم الحيوان : تناولته تعاليم المنهج الحق وطالته، ووضعت له منهجاً حقاً لحمايته، أرست جملة من التشريعات التي تبين كيفية التعامل معه؛ سواء المأكول من سائر الأنعام أو غير المأكول، قبل أن يعرف الإنسان الطريق لذلك، مما يعرف اليوم بحقوق الحيوان . قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

إن منهج القرآن الكريم خير منهج حق، ضمن حقوق الحيوان وحمايته على الوجه الصحيح، حين وضع للبشرية كافة التعاملات الصحيحة معه، فمع كونه حيواناً محكوماً بالغريزة لا عقل له، فإن له في منهج الإسلام حقوقاً يجب أن تراعى . لذا جاء في الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ : (**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته**)[2] .

---

[1] رواه مسلم، (٤٥٠) .

[2] رواه الترمذي، (١٤٠٩) . النسائي، (٤٤٠٥) . وصححه الألباني من سنن الترمذي .

٣- عالم النبات : جاء المنهج الحق بكل ما يحفظه، باعتباره أحد مخلوقات الله تعالى في الأرض، حين أمر بتعهده، والاهتمام به، والمحافظة عليه، وعدم التعدي عليه، بالفساد والإفساد . قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ .

المنهج القرآني أمر بالاهتمام بعالم النبات، وبتعهده، وزرعه، وغرسه، لما فيه من غذاء للناس، ولما فيه من منافع كبيرة وكثيرة، ومتعددة لعالم البشر ذات قيمة غذائية، وصحية، وطبية، ودوائية، أثبت العلم الحديث ذلك، هذا بالإضافة لما له من زينة وجمال وبهاء وعطر فواح .

لذا أمر رسول الله ﷺ في الحديث النبوي الشريف بزرع الشجر مهما كان الأمر، لما في ذلك من الأجر، والظل، والخير، والمنفعة العامة بقوله ﷺ : (**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها**)[1]. فهذا الحديث كما أنه دليل على قيمة العمل في الإسلام، فهو أيضاً دليل على الاهتمام بالنبات، لما للاهتمام به من آثار طيبة باقية .

٤- عالم الجماد : حوى المنهج الحق، وشرعه الصدق العالم الأرضي أجمع؛ حتى عالم الجماد وما هو في حكمه، كان له نصيب من تشريعاته وتعاليمه . قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

[1] رواه أحمد، (١٢٩٠٢) . والبخاري في الأدب المفرد، (٤٧٩) . وصححه الألباني من أحاديث الأدب المفرد . والفسيلة : النخلة الصغيرة .

إن الله تعالى يحفظ الأرض ومن عليها بإقامة البشر للحدود الشرعية؛ لأنه بذلك يتحقق تطبيق منهج الله تعالى الحق وشرعه القويم على ظهرها، ولا أمان لأهل الأرض، ولا استقرار لهم إلا بذلك وهذا ولا ريب فيه حفظ للديار من الفساد؛ لأن في مخالفة المنهج السماوي الحق؛ دمار الديار وأهلها، بشؤم ما كسبت أيديهم وبما اقترفوا من أعمال تضاد مراد الله تعالى . لذا جاء في الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ : "**حد يعمل به في الأرض، خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحاً**"[1].

٥- العالم العلوي : تجاوز المنهج الحق عالم الأرض، ليحوز الكون بما فيه حتى السماء والعوالم العلوية؛ تناولها وبيّن أن الكون كله استقام على مراد الله سبحانه[2].

قال تعالى في سورة المؤمنون : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ .

المنهج القرآني الوقائي بيّن أن هذا الكون كله، مصرف مدبر مسخر بتسخير الله تعالى له، يسير وفق نظام دقيق، متناهٍ في الدقة، لا يخرج عن نطاقه، وفي مسارات معلومة موجهة، لا يحيد عنها أبداً .

ولهذا جاء في الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ : "**أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟**» **قالوا : الله ورسوله أعلم قال : "إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك حتى يقال لها :**

---

[1] رواه النسائي، (٤٩٠٤) . ابن ماجة، (٢٥٣٨) . وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، (٢٣١) .

[2] تعليق : المنهج الوقائي لم يأت ليخاطب العالم العلوي من حيث الأصل، ولكنه تناوله في حديثه، بما يظهر شموليته، وأنه من لدن حكيم خبير .

ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، ولا تزال كذلك حتى يقال لها : ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئا حتى تنتهي إلى مستقرها ذاك تحت العرش، فيقال لها : ارتفعي أصبحي طالعة من مغربك، فتصبح طالعة من مغربها "، فقال رسول الله ﷺ : "أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين {لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً}"[1].

هذا هو المنهج الوقائي الحق، الذي جاء به القرآن الكريم، متصفاً بكل هذه الخصائص الذاتية، مستوعباً كل عام الخلق، لم تقتصر مدي نفعيته على الدنيا وحسب ! وإنما تعدى نفعه للدار الأخرى، فهو منهج دنيوي، وأخروي، حقق السعادة الحقيقية في الدارين سواء :

١- فكونه منهجاً دنيوياً : لا وجود لمنهج أحسن منه على الإطلاق، حقق السلامة لعموم جنس الإنسان، وضمن له النفع في دنياه، ووقاه من كل شر، وسوء، وبلاء، ومكروه، ومنكر، ومهلك؛ قد يختل به نمط الحياة الدنيا المعتادة، بما جاء به من جملة الوقائيات، والتشريعات، والتعاليم الدينية الحقة، التي آتت ثمارها في واقع البشرية . قال سبحانه وتعالى في سورة الطلاق : ﴿ **وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢** ﴾ .

٢- وكونه منهجاً أخروياً : ضمن للإنسان الوصول إلى دار السلام، في جنة عرضها السموات والأرض . قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ **لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ**

[1] رواه مسلم، (١٥٩) .

رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾ .

والمحصلة النهائية : تبين أن المنهج الوقائي القرآني يقوم على أساسين اثنين يشملان عموم تنظيماته . هما :

١- الأساس الأول . أنه منهج جامع لكل مصلحة ومنفعة .

٢- الأساس الثاني . أنه منهج مانع لكل مفسدة ومضرة .

كما تبين أن له خصائص كثيرة، أظهرت مدى نفعية تعاليمه، ومحاسن شريعته، وأبرزت استيعابه وشموليته، لكل الشرائح البشرية، والطبقات الاجتماعية، والأمم والشعوب، والأفراد والجماعات، بل وسائر المخلوقات الأرضية والسماوية .

المبحث الثالث

أهمية المنهج الوقائي في القرآن الكريم

المبحث الثالث : أهمية المنهج الوقائي :

للمنهج الوقائي في القرآن الكريم مكانة كبرى؛ أرسى خلالها منهجاً وقائياً متكاملاً، شمل كل جوانب الحياة الدنيا، ومجالاتها، ومتطلباتها، ابتداءً من حفظ الضرورات الخمس، ومروراً بتوفير الاحتياجات، وسعياً لتحقيق التحسينيات، كل ذلك إرساءً لمفهومه الحق .

ولا مبالغة إذا قيل : كل آيات القرآن الكريم جاءت بالوقاية التامة، على اختلاف درجات ذلك . وكل هذا يوضح ولا ريب مدى أهميته . فآيات القرآن الكريم بصفة عامة إنما جاءت لتحقيق شرع الله تعالى وإقامته للخلق؛ المتضمن الوقاية الكاملة التامة، بكافة أهدافها ومقاصدها . والقرآن الكريم منهج رباني قويم جاء من عند الرب الحكيم، لينعم بتطبيقه البشر في حياتهم الدنيا، ومن ثم في حياتهم الأخرى .

وبالتالي فقد اهتم المنهج الوقائي في القرآن الكريم، بمراعاة كلا الجانبين المادي والمعنوي؛ للبشر؛ لأن الله تعالى خلق البشر من روح وجسد، وهو سبحانه أعلم بهم، وبخلقتهم، وأدرى بما يصلح لها شأنها، وقد سبق بيان معنى قوله جل في علاه : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ .

والجانب المادي اهتم تماماً بالجسد الملموس، وكل ما يتعلق به، في حين اهتم الجانب المعنوي بالروح، وكل ما يتعلق بها . منهج وقائي حقق للبشر مفهوم الوقاية بمفهومها الشمولي العريض، الذي قام على التوازن بين كل قوى الإنسان، مستوعباً شتى المجالات . لذا اهتم القرآن الكريم اهتماماً بالغاً بتأصيل المنهج الوقائي في كافة الجوانب، حين ساق جملة من الآيات، أرسى خلالها متطلباته، وأهم أركانه، وأسسه، وقواعده . فحقق بذلك :

١- اليقين العقدي . حين أورد عشرات الآيات، ليحمي حياض العقيدة والتوحيد، وليعرف المسلم كيف يعبد ربه سبحانه، على نور منه جل في علاه، من خلال التأصيل والإرساء الصحيح لذلك، ومن خلال إظهار عاقبة الانحراف عن العقيدة الصحيحة وبيان ذلك، إذ لا يمكن بحال إقامة دين حق بمنهج صدق، على عقيدة غير صحيحة ينطلق منها المؤمن . كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ . وقوله سبحانه في سورة الكهف : ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾ ﴾ . فالعقيدة الصحيحة جاءت آمرة بسلامة النية، والمقصد في كل أمور الدين، مبينة أن فساد النية يعني فساد العمل، فاقتضت إقامة أركان الإسلام الخمسة، التي هي أساس هذا الدين الحق، الداعي لحقن الدماء، وحفظ الأموال، وسلامة كل الضرورات .

المنهج الوقائي الحق جاء ليدل المسلم على ماهية العقيدة الصحيحة، فيعرّفه من هو الله تعالى، الخالق العظيم، الرازق الكريم، ويعرّفه ماذا يريد منه ؟

ولماذا خلقه، وكيف يعبده، وماذا أعدّ سبحانه لمن عبده وأطاعه، وماذا أعد لمن كفر به وعصاه ؟ ليعرف الإنسان الهدف الرئيس من الحياة ووجوده فيها .

جاء ليعلمه معنى دين يعتنقه ؟ وحقيقة رب يعبده ؟ وكيفية شرع يتبعه ؟ ونفعية تعاليم يسير عليها ؟

وأراد من الإنسان أن يعلمه كيف يقيم دينه بكل اقتناع واطمئنان ؟ بعد أن يتعرّف عليه من مصدره الأصيل، ومنبعه الجليل .

المنهج الوقائي الحق جاء بكل ما يضمن للإنسان سلامة دينه ومعتقده، حين يقف على الحق بنفسه وبلا مؤثرات، وحين يرى ويشاهد في الكون دلالات السير على عقيدة صحيحة، وعاقبة ذلك، وحين يلمس وخامة الانحراف عنها وعاقبة ذلك السيئة، لأنه جاء من عند إله الصدق، الذي فطر الناس سبحانه على وجوب اعتناق الإنسان لدين يجد فيه بغيته، ويلبي احتياج غريزة التدين فيه، فوفر له كل ما يحقق ذلك بالضبط . وفي الوقت نفسه حذر المسلم من كل ما قد يؤثر على دينه، من كفر، وشرك، ونفاق، وقوادح توحيد، وما إلى ذلك، حذره من سوء عاقبة الاستخفاف بهذه الأمور، أو الانحرف عن العقيدة الصحيحة، بعد أن أزال كل شبهة، ودفع عنه كل لبس، وأبطل كل زعم، قد يقع فيه المسلم، حين تناول مسألة العقيدة من كل وجه، وعالج كل ما قد ينشأ نتيجة الانحراف فيها، أو الفهم الخاطئ لها، ليبقى المسلم في دائرة العبادة الصحيحة لربه سبحانه وتعالى .

وبهذا رسم المنهج الوقائي الحق لعموم البشر خطوط الاعتقاد السليم، وحد لهم حدود الدين القويم، التي لا يمكن بحال تجاوزها وإلا لفسدت العقيدة . وحينها سيضِل الفرد طريقه متى عاش من غير معتقد سليم، واضح المعالم، يبين له حقيقة الدين الحق، والشرع الصدق، وما شقي العالم الأرضي وأممه، وشعوبه، ومجتمعاته، إلا لما اتكأت على هزالات عقلية، واستحسانيات فلسفية، موضوعة على أنها تعاليم عقدية ربانية، تلك الهزالات؛ أوقعتهم في مشكلات لا خلاص لهم منها، ولا فكاك لعقولهم من ملزماتها، وشبهاتها، وما ذاك إلا لأنهم وضعوا العقيدة، ولم يأخذوها ممن وضعها لهم، وهو العلي الأعلى جل ربنا في علاه .

٢- النضوج الفكري . حين أورد جملة من الآيات ليضمن سلامة الفكر، من كل ما يشوبه ويضر به، أو يؤثر عليه من مؤثرات، أياً كانت، من خلال بيان المنهج الحق، وطريق الصلاح والإستقامة والهداية، ومن خلال التحذير من عاقبة الجنوح، والشطح، والانحراف، إلى حيث الضلال، والظلام، والخبال، والأوهام، فمن غير المنطقي أبداً إقامة المنهج الحق، على فكر متخبط، وعقل متشكك، وقلب متردد . لأنه أراد من الإنسان أن يسير وفق فكر سليم، خالٍ من أية مؤثرات قد تفسد عليه حياته، أراد منه أن يستعمل قدراته العقلية في فهم الحقائق كما ينبغي، وفي ترجيح الحق على الباطل، والنور على الظلام، والهدى على الضلال، والخير على الشر . كقوله عز وجل في سورة الأعراف : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾ . وقوله سبحانه في سورة يونس : ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

المنهج الوقائي الحق صان الفكر من السبح المنطلق، بعموم الأفكار، والرؤى، والاستحسانيات، من غير حدود يقف العقل عندها، أو خطوط يستضيء ويستنير بها، أو معالم ينهل منها، أو ثوابت يصدر عنها، أو قيود، وضوابط، تحكمه وتوجهه .

أراد من البشر النظر لما في دواخل عقولهم، وبواطن نفوسهم، من معالم الفطرة المطمورة فيهم، ومن أدلة الحق المغمورة فيها، ليعرفوا حقيقة هذا الخلق العظيم، والهدف من وجوده .

إن الله تعالى صبغ الخلق على مراد فطرة دالة عليه سبحانه، تهديهم للحق، والخير، والبر، والهدى، والنور، متى سلم الإنسان من المؤثرات الخارجية عليه، التي قد تفسد دلالة الفطرة الصحيحة، فوجب على المسلم التحري لأمر دينه، حتى لا

يقع في أدنى شبهة منها قد تفسده عليه، وهذا في حد ذاته سلامة للمسلم من كل شر، وسوء، ومكروه .

وبهذا يكون قد جاء بالضبط ليحمي الإنسان من دوامة الأفكار المجردة من الضوابط، ومن الاستحسانيات الخالية من القيود، التي لا تسترشد بالدين، ولا تعتمد على منهج حق تسير عليه، وكبرى مشكلات العالم اليوم وجهوده الحثيثة، تحوم حول إيجاد فكر وسطي معتدل، لا تطرف فيه، ولا انحراف، يتفق عليه الجميع ولا يختلفون، فأين هم من المنهج الوقائي الرباني الحق، الذي سيغني الجميع عن تنظير بعضهم لبعض، ولا غنى للجميع عنه بأي حال أبداً .

٣- الاطمئنان النفسي . حين أورد عشرات الآيات التي تكلمت عن النفس، ليحقق طمأنينتها، واستقرار انفعالاتها، وخلجاتها، من خلال إرساء ما يعصمها ويقودها إلى حيث الفوز العظيم، ومن خلال ما يهذب سلوكها، ويحقق رغباتها، ويوجه طاقاتها الوِجهة الصحيحة، في كلا الجانبين المادي والمعنوي، وليس من الطبيعي إطلاقاً، الاقتناع بمدى نفعية هذا المنهج الحق؛ بنفس حائرة، وإرادة تائهة، لا تعرف الحق من الباطل، ولا الخير ومن الشر ولا الهدى من الضلال .

كقوله جل في علاه في سورة المائدة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴿١٠٥﴾ ﴾ . وقوله تعالى في سورة الشمس : ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ .

المنهج الوقائي أحاط النفس البشرية بكل عناية، وزودها بكافة التعاليم التي تقيها مما قد يعرض لها، أو يضر بها، أو يؤثر عليها .

وتحدث عن النفس من كلا الناحيتين، الإيجابية للتمسك به ولترتدي ثوبه وتتزين بحلته، والسلبية لتحذر منه وتتوخاه وتجتنبه .

وجعل للإنسان عقلاً يفكر فيه، ويختار بين البدائل والاختيارات، وجعل له في شواهد الكون المرئي، ما لا حصر له من الدلائل والقواطع، التي تبين له الحق واضحاً جلياً، وتظهر له الباطل عارياً هزيلاً . وأراد منه التبصر في حقيقة وجوده في هذه الحياة، والتعرف على الهدف الرئيس من ذلك، ومن ثم معرفة دوره فيها .

المنهج الوقائي هو المرشد الحقيقي للنفس البشرية، والموجة الدقيق والمباشر لكل انفعالاتها، ورغباتها، وتطلعاتها، وأشواقها، حين حذرها من الانطلاق في حمأة رغبات، ونزوات، وقتية هوجاء، حمقاء، لا حدود لها، ولا ضوابط تقيدها، مما يجعلها قد تضر بذاتها، أو بغيرها .

إن الله تعالى قد جعل في النفس البشرية المؤشر الحقيقي لمعرفة الحق من الباطل، والخير من الشر، كالوازع النفسي داخل الإنسان، وهذا بدوره يجعله دوماً ينصت لذلك الصوت الخفي بداخله، الذي يدعوه للحق، والخير، والبر، والهدى، الأمر الذي يقتضي الحذر من قضية التفريط والتهاون في مسألة محاسبة النفس، والانخراط في غيها، وفي دوامة الأماني الكاذبة، وأحلام اليقظة المفرطة، والتي تعرف بحيلة العاجزين .

وبهذا يكون قد وضع للنفس البشرية جملة من التوجيهات، والوقائيات، التي تضمن لها الحياة السعيدة، في ظل توازنات نفسية لا غنى للإنسان عنها، بل إنه سيواجه كل الشقاء متى تجاهلها، أو تجاوزها، أو تغافل عنها، والعلماء الذين اعتنوا بهذا الجانب من العلم على مر التأريخ كثفوا جهودهم لدراسة النفس البشرية، ومتعلقاتها من كل وجه، كي يعرف الإنسان كيف يتعامل معها، ومن ثم يخفف من حدة المشكلات التي تواجهها . وأنّ لدراسات بشرية مهما كانت، أن تحيط بها، كما أحاط المنهج الوقائي الرباني الحق بكل خصوصياتها ومتعلقاتها !

٤- التنظيم التشريعي . حيث ذكر عشرات الآيات التي تكلمت عن الشرع المطهر، لينظم حركة الحياة، بتعاليمه السمحة، فيعرف المرء كيف يعبد ربه سبحانه، وكيف يتعامل معه عز وجل، ويعرف كيف يتعامل مع خلقه، من خلال إرساء جملة من التشريعات المتضمنة الالتزام بالأحكام، ومن خلال إقامة الحدود التي هي جزء من التشريعات، مع قدرة التشريع على مراعاة مقتضى الحال، والتي تعد من أميز ما يميز مدى نفعيته، وصلاحية تعاليمه لكل الزمان والمكان، وأبرز ما يحقق ذلك بكل وضوح .

كقوله جلت قدرته في سورة المائدة : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴿٣﴾﴾ . وقوله سبحانه في سورة النحل : ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ .

المنهج الوقائي أراد من الإنسان أن يعرف ماذا ترك الله تعالى له، من ذخيرة ضخمة، ضمن بها لعموم البشر الحياة السعيدة الهانئة متى ما تمسكوا بها، حين حقق لعموم البشر كافة المصالح التي أدركتها عقولهم، والمصالح التي تدركها عقولهم بعد؛ زماناً ومكاناً؛ حالاً ووضعاً .

وحين حمى عالم البشر من الخضوع لبعضهم بعضاً، حين يرى أيُّ فرد فيه أن له القدرة على التقنين والتشريع والتنظير، ومن ثم يريد من الجميع السير على ما رآه حسناً، كل ذلك ليخضع الجميع لله تعالى العلي الأعلى سبحانه .

المنهج الوقائي الحق قطع الطريق على كل من رأى في نفسه الأحقية والجدارة، وأعطى لقوله الأولوية والصدارة، وأراد من العموم متابعته بلا تحفّظ، ليكون المشرع هو الله سبحانه، الآمر، الناهي، والخلق كل الخلق أمام شرعه سواء .

وحين بيّن أن وضع العلي الأعلى سبحانه الذي خلق فسوى وقدّر فهدى، والأخذ به يعني تساوي كل الرؤوس أمامه لا فرق بين أحد من البشر أبداً، وما شقي العالم أجمع قديماً، وحديثاً بين متبوع رفيع، وتابع وضيع، إلا لما تفاوتت أفهام العقول، فيمن هو الأجدر يا ترى، والأحق من عالم البشر، ليقول، ويقنن، ويشرّع، ولا تلافٍ لقوله، كما لو كان قولاً فصل .

إن هذا الدين الحق جاء بشرع مطهر، سهل سمح، قائم على مبدأ اليسر بالخلق، وهذا في حد ذاته اقتضى رفع الخطأ والنسيان وما استكره عليه المرء، ومن هنا اكتسب الشرع المطهر صبغة غاية الرأفة، والرحمة، واليسر بالخلق .

٥- الكمال الأخلاقي . حيث أورد آيات تكلمت عنه، ليزكي أخلاق الناس، فتظهر معالم الأخوة الإسلامية فيتحقق التكاتف فيما بينهم، من خلال تعميق حب الخير للغير، ومن خلال تبشيع سوء الخلق، وآثاره السيئة على الجميع . والمنهج الحق هو منهج الأخلاق الفاضلة، فكيف له أن يتخطى ذلك، ولا سيما أنه أراد من البشر أن يقيموا علاقاتهم في دنياهم على أساس إشاعة قيم المحبة، والإخاء، والبذل، والعطاء، والرحمة، والعفو، والعدل، والمساواة، وما إلى ذلك .

كقوله سبحانه في سورة آل عمران : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ . وقوله جل في علاه في سورة القلم : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ .

المنهج الوقائي زين شريعته المطهرة وتعاليمه القويمة بسياج الأخلاق، والفضائل، وجعلها الرباط الوثيق فيما بين البشر .

وبيّن لعموم جنس الإنسان أن حدوداً في الشريعة يمكن الاستغناء عنها، متى تعامل الخلق فيما بينهم بالأخلاق والمكارم، كسائر حدود الجرائم والعقوبات، التي يمكن أن يستغني عنها المجتمع المسلم متى أقام شرع الله سبحانه وتعالى فيما بين سائر أفراده .

وأراد أن يعلم الناس أن التعامل بأسلوب المصلحة البحتة المنفعة الصرفة، قد يجعل الناس يتقاطعون، حين يركضون خلف المصالح، والمنافع، فقرر التعامل بالأخلاق من باب البذل، والتضيحة، والإيثار، فيما بينهم .

إن حسن الخلق من أثقل الأعمال في ميزان العبد يوم القيامة لما له من آثار حميدة، تعين المسلم على تكوين علاقات مثمرة مع غيره من الناس، وهذا في حد ذاته أهم ما جاء به الدين الحق، آمراً به داعياً إليه .

المنهج الوقائي الحق كما أنه دين عبادة بين الخلق وربهم سبحانه، فهو أيضاً دين معاملة بين الخلق بعضهم بعضاً، يتعاملون بقيم الأخلاق قبل التعامل بالحقوق والحدود، وبالتالي فلا سبيل لإقامة علاقات صحيحة سليمة، لمجتمع متكامل صحي سليم، إلا بالأخلاق وقيمها الفاضلة .

٦- الأصالة التربوية . بما أورد من آيات تكلمت عن التربية، لتسير على المنهج الحق، وفق مراد الله سبحانه، من خلال إرساء مفاهيم القيم، والفضائل، ودورها الرائد في الحياة، ومن خلال التأكيد على أن عاقبة فساد التربية في المجتمعات، له آثار سيئة وخيمة، إذ من غير المعقول إقامة المنهج الحق، على أساس تربية فاسدة منحلة، لا تعرف قيمته ولا مدى نفعيته .

كقوله جل شأنه في سورة التحريم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ٦ ﴾ . وقوله جل وعز في سورة التغابن :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ ﴾ .

المنهج الوقائي ربّى الإنسان على خير مرادات، وقيم، ومبادئ، تضمن له الحياة السعيدة الفاضلة، وتجنبه كل أنواع الفساد، والفوضى والتوهان، وتبين له كيف يتعامل مع الآخرين بكل وعي، ولباقة، ومسؤولية، ليكون فرداً صالحاً في معيشته، منتجاً في مجتمعه، نافعاً في موطنه .

ووضع له التعاليم القيمة، والتوجيهات النافعة، قبل أن يخلقه، ليبين له أنه منهج رباني متكامل موجود قبل وجوده، ليسمو بالإنسان إلى حيث الرفعة، ليعيش حياة الشرف، والنزاهة، والبذل، والعطاء، ويربو به عن مواطن الذل، والهوان، والضياع، والتوهان، كي لا يعيش حياة البهائم، من غير منهج يهديه، ويدله، ويرشده، ويوجهه، ومن غير هدف وقصد يسعى إليه ويرجوه ويرنوه .

إن كل مسلم مسؤول في حياته الدنيا عمن استراعاه الله تعالى إياهم، وملكه زمام أمرهم، مما يستوجب عليه القيام بحق الرعاية، والنصح تجاههم على الوجه الصحيح، في توجيه، وإرشاد النشء، وتعميق جذور الفضائل، والمكارم، والأخلاق الحسنة .

المنهج الوقائي وضع بذور التربية الطيبة الصحيحة، في نفس كل إنسان، ليجد في قرارتها ثمرة نفعية الصلاح، ووخامة الفساد، فوقاه من كل مفسد وموبق، وهذا هو الفرق الرئيس؛ بين تربية العالم غير المسلم، الذي يتعامل بالقيم، والمبادئ؛ لأنه يراها ذات مصالح تعود على الفرد بالنفع العاجل، والتي لولاها لما كان الإنسان ذا قيمة في مجتمعه، ولما حصل على ميزات آنية فيه، وبين تربية المنهج الوقائي الذي يربي الإنسان على قيم، ومبادئ، كفضائل تسمو به لها ثمرات عاجلة، وآجلة، في

الدنيا والآخرة سواء، تجعله يفكر حتى وإن فاته الخير في الدنيا، فإنه إن شاء الله تعالى سيدركه النعيم في الآخرة .

٧- الاستقرار السياسي . بما أورد من آيات تكلمت عنه، ليحفظ للناس استقرار حياتهم على المنهج الرباني الحق، المستمد من رب السماء، الذي يغنيهم عن تنظيمات البشر المتشعبة وتقنيناتهم، من خلال الأمر بوجوب طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ وأولي الأمر من بعد، ومن خلال وجوب الاحتكام لشرع الله تعالى المطهر، الذي لا يتخلله النقص أبداً، إذ ليس من المتصور مطلقاً أن يخلو المنهج الوقائي من تعاليم سياسية، تحفظ حياة البشر وتنظم معايشهم، على الوجه السليم .

كقوله جلت عظمته في سورة النساء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ . وقوله جل جلاله في سورة المائدة : ﴿ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

المنهج الوقائي أراد من البشر أن يتعلموا الفرق بين المصالح والمفاسد، وبين المنافع والمضار، وبين الممكن وغير الممكن، في دنياهم .

كما دعا الخلق لمعرفة كيفية تحقيق التوازنات في حياتهم، وكيفية التعايش السلمي مع بعضهم على ظهر هذه البسيطة .

ومنع الإضرار بالآخرين، ونهى عن مبدأ التسلط عليهم، والاستبداد بهم، وحرم استرقاق الناس، واستعباد البشر تحت طائلة احتياجاتهم وضروراتهم . وعلم الإنسان كيف يقيم الدولة، بكافة مرافقها، وكيف يبني كيانها، وحدّ لذلك حدوداً، وأعطى الحاكم كافة الصلاحيات، التي تعينه على توطيد دعائم الحكم .

وأمر بوجوب وحدة الصف، وجمع الكلمة، وحذر من وخامة الاختلاف والفُرقة، فأمر بوجوب طاعة ولي الأمر واحترام الحاكم، وألزمه في نفس الوقت، بالرفق بالرعية، والقيام على شؤونهم، والسهر على مصالحهم .

إن إقامة شرع الله تعالى هو الضامن لسلامة البلاد والعباد، في كل زمان ومكان، والدولة المسلمة لا يمكن أن يستقيم أمرها على الوجه المطلوب بالضبط إلا بإقامة تعاليم شرع الله تعالى وقيم دينه، بتحقيق قيم العدل، والمساواة، والرحمة، والرفق، والنصح، والتوجيه الرشيد، وما إلى ذلك .

المنهج الوقائي الحق هو منهج حياة متكامل، بيّن أنه يسع الجميع أن يتعايشوا بسلام، فدعا لتكوين العلاقات فيما بينهم، وقرر كل ما من شأنه تحقيق ذلك، والناظر في سياسات العالم حديثاً يجد أن قانون الغاب والتغالب، هو الغالب المعمول به، والسائد فيما بين شعوب الأرض، ولا سبيل حقيقي للاستقرار الأكيد على ظهر هذه المعمورة، إلا بتطبيق المنهج الرباني الحق، الذي حقق نفع الجميع، ومنع الضرر عن الجميع، وأخذ من الجميع، وأعطى الجميع .

٨- الرقي الاجتماعي . بما أورد من آيات تكلمت عنه، لتسلم الأمة المسلمة من كل الداءات، والمعضلات، والمشكلات، التي تنتشر وتشيع فيما بين أفراد المجتمعات المسلمة، من خلال إشاعة مبدأ الأخوة الإسلامية فيما بينهم، والتحذير من سوء العلاقات وتقطيع الأواصر، ومن خلال حمايتها بما يحقق مصالح الجميع، بتحقيق مفهوم الأمة الواحدة، ذات المصير الواحد، ومقتضيات ذلك، إذ الجانب الاجتماعي من أهم أهداف، وأغراض، المنهج الحق، التي جاء داعياً إليه وله، لتنظيم حركة الناس في مجتمع مسلم منظم، يقيم شرع الله سبحانه وتعالى وتعاليم دينه الحق .

كقوله سبحانه في سورة النساء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ . وقوله جل في علاه في سورة الحجرات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ .

المنهج الوقائي أقام علاقات الناس بعد أن بيّن للجميع كل ما يضمن لهم الحياة السعيدة المستقرة المطمئنة المتكافئة، في ظل منهج حياتي متكامل، لم يغفل عن أي جانب من جوانب الحياة الدنيوية، حين نظّمها غاية التنظيم، لترتقي بالمجتمعات فتنتشر الفضيلة وتختفي الرذيلة ويتعايش الناس حينها حياة التكامل لا حياة التغالب والتكالب، وجعل تلك العلاقات قائمة على قيم العدل، والمساواة، والمحبة، والإخاء، حتى يشعر الجميع أنهم خلق الله تعالى، يحكمهم شرعه القويم .

إن النصح واجب على المسلم تجاه كل الأفراد في مجتمعه، مما يربطه برباط الأخوة الواحدة، بل يلزمه بواجب النصح حتى فيما يخص ضمان سلامة دينه ومعتقده ومقدساته، في مقدمة ذلك نصحه لله تعالى، ببيان ما له عز وجل على العبيد من حقوق العبادة والطاعة وشكر النعم، وببيان ما لرسوله ﷺ من حقوق الطاعة واتباع وتأسٍ واقتداء، وببيان ما لعامة الناس من وجوب بذل النصح بحسب طاقة المرء ومكانته في مجتمعه، وببيان ما لولاة الأمر من حق الطاعة؛ والنصح قدر الإمكان .

وبهذا يكون قد حمى البشر من كل موبق، ومهلك، ومفسد، حين أقام دنياهم على جملة من التنظيميات، والعلاقات، والروابط الحسنة، والتعاليم القيمة .

٩- التنمية الاقتصادية . حين أورد جملة من الآيات التي تكلمت عنها، ليؤسس للأمة المسلمة كياناً اقتصادياً قوياً، من خلال بناء اقتصاد مستقل يغنيها عمن سواها، فلا تكون خاضعة لأحد، ومن خلال الاستفادة الحقيقية المطلوبة من عصب الحياة وشريانها، ألا وهو المال . ومنهج حق لا بد له من تناول عصب الحياة وشريانها، بكافة التشريعات والتعاليم، التي يقيم بها تعاملات الناس، وتبادلاتهم التجارية فيما بينهم، على أساس واضح وإيجابي . كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ . وقوله عز وجل في سورة البقرة : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴿٢٧٥﴾ ﴾ .

المنهج الوقائي علم الإنسان كيف يستعمل المال في أسباب ترقي حياته، وتنمية موارده، وتوفير ضرورياته، واحتياجاته، ووظف المال على أساس أنه وسيلة لبلوغ المرادات، وسبب لقضاء الاحتياجات، وليس غاية يركض خلفها كل مهووس، ضيق الأفق، قاصر التفكير، شحيح النفس، فاسد القلب، مجرد من القيم والمبادئ .

وربط حياة البشر بالمال، وجعله بينهم دُولةً، يتبادله الجميع للانتفاع به، وليس للإضرار به، والاستبداد، والتسلط على الآخرين .

وحذر من سوء عاقبة استعمال المال في المحرمات، أو في الإفراط في المباحات، ونهى عن كل آفاته، من بخل، وشح، وأنانية، وانتهازية، واستغلال، واستغفال،

واحتكار، وتحايلات، كما خوّف من وخامة منعه عن ذي الاحتياجات، من مستحقين له ومستفيدين منه .

وبهذا أراد أن يُعلِم الغني أن للفقير في ماله حقاً؛ قرره الشارع الحكيم، ليس هبة من الغني ولا تطوعاً من لدنه؛ يسخره به، ويستميله، ويسترضيه، ليحصل التوازن في المجتمع على الوجه المطلوب، حين رتب مسألة المال على أساس احتياج كل طرف للآخر، لتتكامل حركة الحياة فيما بين البشر، بكل مسؤلية، واهتمام، وبلا عبثية فيه، ولا تبديد لطاقاته، أو هدر لممتلكاته .

إن الله تعالى أباح للخلق عموم التعاملات المثمرة على الوجه الصحيح، ونهى عن كل تعامل مشبوه يحقق مصالح قوم على حساب آخرين، وهذا في حد ذاته نبذ لقيم الأنانية، والانتهازية، وحب الذات لدرجة الإضرار بالغير، وتقرير لكل تعامل مثمر من طريق مشروع، يحقق المصالح للجميع واقعاً، دون استغلال أو استغفال .

المنهج الوقائي الحق علم أن الانتفاع بالمال متى طال الجميع حصل الاستقرار المطلوب في المجتمع، ومتى كان حكراً على الأقلية منهم دون الأكثرية، حصل التنازع والتباغض في المجتمع، وما من مجتمع قام على مثل تلك التجاذبات المائلة المجحفة، إلا تكبد خسائر لا حصر لها بين أفراده، يشقى به الجميع، كلما طال العهد وتقدم الزمان .

١٠- الانضباط الإعلامي . حين أورد عدة آيات تكلمت عنه، ليعلم الناس كيف يتعاملون مع بعضهم بعضاً، في أجواء وأوضاع صحية لا بلبلة فيها، ولا أراجيف، فتشيع في المجتمع عموم الفضائل، وتندحر عموم الرذائل، من خلال إرساء ضوابط لذلك، ومن خلال التحذير من عاقبة نقل الشائعات، وإطلاق الكلمة بلا قيود؛ إذ من غير المتوقع ألا يتطرق المنهج الحق للحديث عن الحركة الإعلامية، التي بها يبين

ويبرز ويظهر مدى نفعيته، وأغراضه وأهدافه السامية . كقوله سبحانه في سورة النساء : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ ﴾ . وقوله جل جلاله في سورة الأحزاب : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ ﴾ .

المنهج الوقائي وجه الحركة الإعلامية، لتقوم بدورها الفعّال في المجتمعات؛ لأن فسادها يعني فساداً منتشراً، وشراً مستطيراً، وحمى البشر من عواقب انتشار الخبر الكاذب، والقول المزيف، والنبأ الملفق، والدعايات المغرضة، والشائعات المضللة .

إن جُل فساد المجتمعات وشقائها جاء نتيجة إطلاق الكلمة، والتخوض في الأقوال، وترويج الشائعات، ونقل الأخبار من غير بينة، وهي ظواهر اجتماعية منبوذة، متى وجدت طريقها بين الأفراد، تفككت أواصر التآخي فيما بين المجتمعات، وهذا في حد ذاته مؤشر على إعلام فاسد، يضر المسلمين ولا ينفعهم، متى ضاعت الأمانة، وفقدت النزاهة، وتلاشى الإخلاص، وصدق القول، وما في ذلك من فساد عظيم؛ لمرفق مهم من مرافق المعرفة وركن من أركان التعليم .

وأراد لهم كل الخير، والنور، والهدى، حين أطّر وقنن مسألة نقل الكلمة، ودعا لصدق إذاعة الخبر، وأمر بوجوب احترام القلم، وما فسدت المجتمعات إلا لما استخف الناس بحقيقة صدى الكلمة، ودور القلم، ومفعول الخبر، وكلها أمور جاء المنهج الوقائي الحق بما يضمن صحتها، وسلامتها من كل ما قد يشوبها، أو يؤثر عليها .

١١- الاستعداد العسكري . بما أورد من آيات تكلمت عنه، ليعرف المسلمون كيف يحمون دولهم، ويبنونها، فتتحقق هيبة الدولة المسلمة ومكانتها، من خلال إثبات وجودهم، ببناء دولة قوية، لها ثقل ومكانة فيما بين الأمم والشعوب، ومن خلال الاستعداد لكل ظرف، بحماية أطراف الدولة وحدودها، وبإظهار قوة دولة الإسلام .

لذا كان من المتحتم ولا ريب أن يحوي المنهج الحق كافة التعاليم العسكرية، التي بها يحفظ دولته لتقيم شرعه كما ينبغي . كقوله سبحانه وتعالى في سورة الأنفال : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ ﴿٣٩﴾ ﴾ . وقوله عز شأنه وتبارك اسمه في سورة الأنفال : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

المنهج الوقائي علم الإنسان أن للدين الحق أعداء، وأن للدولة المسلمة مناهضين، ومتربصين، فجاء بكل ما يضمن حماية بلدانه وأراضيه، ويضمن سلامة شعوبه ورعاياه، من عموم النزاعات وأسباب الفوضى والفساد .

إن القوة العسكرية المحاربة كامنة في حقيقتها في الرمي، بكافة وسائله وجميع آلاته، وهذا في حد ذاته بيان ووصف لحقيقة الوضع العسكري الحالي بكافة آلياته الحديثة بالفعل، وأنه يجب على الأمة المسلمة الاستعداد لذلك قدر المستطاع، في كل زمان ومكان، وفي كل بقعة ومصر، وقطر وثغر، وصقع من أراضيها الممتدة، لتكون قادرة على حماية نفسها من أي اعتداء قد يهدد مصالحها أو يزعزع أمنها واستقرارها .

المنهج الوقائي أقام حياة البشر داخل الدول، في إطار الأمم والشعوب، وفي حيز البلدان والمجتمعات، فحمى البشر بذلك، حين جعل للدولة المسلمة من يقوم

على حماية معتقداتها، ومقدراتها، وممتلكاتها، ويذود عن أراضيها، ويرد عنها كافة الاعتداءات والتدخلات .

ونظم حياة الدول والمجتمعات، والأمم والشعوب، وأقامها على أساس أنظمة وقوانين، مستمدة من الشرع الحكيم وتعاليمه القويمة، لا منهج للخلق يحقق لهم الحياة المتوازنة السليمة، ويضمن لهم السلامة واستقرار الأوضاع واستتباب الأمن في الداخل والخارج، من كافة النزاعات وعموم التدخلات، حين أعطى ولاة الأمر فرصة التقنين في حدود وإطار الشرع المطهر .

١٢- الوقاية الطبية . بما أورد من آيات تكلمت عنها، لتسلم الأجسام وتصفو الأرواح، من خلال تطبيق منهج الوقاية قبل العلاج، ومن خلال معرفة كيفية التعامل مع الداء متى كان . ولا يمكن أن يتبادر إلى الأذهان أن المنهج الحق قد غفل عن الجانب الطبي، الذي به تكون سلامة الأرواح والأبدان . كقوله سبحانه في سورة المائدة : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ ﴿٣﴾ ﴾ . وقوله جل عظمته في سورة النحل : ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

إن الله تعالى جعل لكل داء دواء؛ وشفاء منه، فأمر جلت عظمته بالتداوي المشروع المباح، بما أحل من أدوية، ووسائل مشروعة، مباحة نافعة، ونهي عن التداوي بمحرم، وفي ذلك إشارة على أن الله جل في علاه لم يجعل الشفاء في محرم أبداً مهما كان، فوجب البعد عنه، وهذا في حد ذاته ولا ريب منهج معتدل، ووقاية، وحماية، وصيانة للمسلم، من كل ما قد يضر ببدنه أو روحه، ولو بأدنى ضرر محتمل قد ينشأ .

المنهج الوقائي أوضح أن الإنسان لا بد له من مقومات تحميه من العلل، والعطب، والمرض، والسقم، والتلف، كي يقوم بدوره خليفة في الأرض .

ووفر للبشر كل ما يضمن لهم به صفاء الأرواح، وسلامة الأبدان، في ربط بين الاثنين، حين علق سلامة كل واحد منهما على سلامة الآخر، ولا سيما سلامة الروح، التي بها يباشر الإنسان رسالته في الحياة على مراد ربه سبحانه منه .

وأباح كل ما يحقق للإنسان حفظ حياته على الوجه المعتاد السليم، بما لا ضرر فيه ولا ضرار، ولا مضارة بأحد، وهو بكل حال منهج أصيل حوى ما علمه الإنسان، وما لم يعلمه عن نفسه، وعن كيفية المحافظة عليها بوجه عام .

١٣- السلامة الغذائية . حيث ذكر جملة من الآيات التي تكلمت عنها، لتقوى الأبدان، فتكون قادرة على القيام بمأمور الله تعالى الشرعي منها، من خلال إظهار المنهج المعتدل في ذلك، ومن خلال التحذير من سوء التعامل بإفراط، أو تفريط فيه . كقوله عز وجل في سورة الأعراف : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ . وقوله جل شأنه في سورة في الأعراف أيضاً : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ .

والغذاء هو أولى أولويات الحياة الدنيا، فكيف لمنهج حق أن لا يتعاطاه على الوجه المطلوب ؟ لذا كان الاقتصاد في الأكل والشرب والاعتدال، يعد رأس الحمية وسلامة البدن، من عموم الأسقام والعلل والأمراض، كما أن السرف في ذلك والتفريط، والشره، والنهم، أساس فساد الصحة البدنية، وما يتبع ذلك من فساد الحالة النفسية، فكان الاعتدال في هذه الأمور، هو عين السلامة من عموم الأمراض، والعلل، والأسقام .

المنهج الوقائي أباح للخلق كل حلال، يقيمون به صلبهم، مما أحل لهم من طيبات الأرض، وخيراتها، ونعمها، وأنعامها، وثرواتها، ومحاصيلها، وحسبهم من ذلك المحافظة على حياتهم كما أراد ربنا جل في علاه، كل ذلك حين جعل القصد من أكل الطيبات؛ العيش والمحافظة على الحياة، ولم يجعل الحياة لأجل الأكل، ومجرد الاستمتاع، والتلذذ وحسب . وحين علم البشر أن القوت هو سبب العيش الرئيس، فجعل الأرض ملأى بالطيبات، الأمر الذي يسع عموم خلق الله تعالى من مآكل، ونِعم، وخيرات، ووزع مواردها وخيراتها بين الخلق، بما يضمن استعياب الجميع، لئلا يتقاتلوا فيما بينهم بسببها ولأجلها، فوجب تقاسمها فيما بينهم لا تجاذبها، والتنازع عليها .

وبهذا وفر كل أسباب القوت، وسبله، وجعل الطيبات أكثر من المحرمات الخبائث، ومنع الشره، والنهم، والبطنة، ودعا لتذكر الفقير، والمحتاج، والمسكين، فربط بذلك بين كافة أفراد المجتمع المسلم، حين يذكر الغني أخاه الفقير، ويسعى القوي لأخيه الضعيف، فكان الغذاء أحد أربطة الدين، والمنهج الوقائي الحق، حين حنن قلوب الخلق بعضهم على بعض .

١٤- النهضة العلمية . حين أورد آيات تكلمت عن العلم، لتنهض الأمة به، وتبني حضارتها، وصروحها على منهج حق، ونور، مبين، من خلال إظهار مدى قيمة العلم في حياة الفرد، ومن خلال الأمر بوجوب الاهتمام والعناية به، ليكون علماً نافعاً؛ لأنه منهج حق قام على أساس العلم ومعطياته . أراد أن يربط البشر بالعلم؛ لأن الجهل سبيل الضلال، وطريق الظلام، وسبب لكل فساد، وفسوق، وضياع، وتوهان . كقوله جل في علاه في سورة الزمر : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾ . وقوله تقدس اسمه في سورة المجادلة :

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ .

إن العلم هو طريق الجنة في الآخرة، وهو طريق الرقي والنفع والرفعة في الدنيا، والشرع المطهر جاء آمراً بطلب كل علم نافع، سواء كان علماً شرعياً دينياً، أو دنيوياً من سائر العلوم الحديثة، التي أثبتت نفعيتها في المجتمع، مما تقوم به وعليه حياة الناس في دنياهم، وبهذا وظف المنهج الحق العلم تمام التوظيف، في كل ما من شأنه رفعة البشر، على أرض الواقع، ضارباً عرض الحائط بكل جهل، وتخبط، وخيال، وعشوائية لا حقيقة لها ولا قيمة .

لذا أراد أن يعلم الإنسان أن الدين الحق لا يمكن أن يقوم على الخرافة، والبدعة، والضلالة، والجهالة، بل لا بد له من سبيل يقود إليه، فكان العلم .

وبيّن أن العلم هو الركن الركين لهذا الدين الحق، دين العلم، والنور، والهدى، والرشاد، دين رفع شأن كل عالم وشرّفه، وفضله، وقدمه على من سواه، وكل شعوب الأرض تتفاخر بعلومها، وبمدى تميز حضاراتها عن غيرها، رغم كونها علوماً قاصرة عن إدراك منتهى الكمالات، لكن المنهج الوقائي الحق جاء بعلم الدين والدنيا معاً، داعياً وساعياً إلى حيث الرفعة والكمالات، وغايات المعالي، والنفع الشامل للجميع، الذي لا مضارة فيه ولا تسيّد، أو تسلط أبداً، علم يهذب السلوك، ويقوّم النفوس، ويصقل العقول، ويصلح القلوب، وهو بكل حال متاح للجميع ليس حكراً على أحد أبداً، منهج وقائي علمي رصين .

١٥- الانطلاقة الدعوية . حين أورد عشرات الآيات التي تكلمت عن الدعوة، ليبين معالمها، ويوضح أهدافها ومقاصدها، التي يحاول الداعية جاهداً بلوغها، والوصول إليها وإدراك أهدافها . كقوله جل في علاه في سورة آل عمران :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ . وقوله تعالى شأنه في سورة النحل : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ .

المنهج الوقائي أظهر مدى أهمية الدعوة في حياة البشر، حين أبرز أن القيام بها معول مهم من معاول بقاء تعاليم الدين الحق باقيةً بين الناس .

ووضع أسس الانطلاقة الدعوية الصحيحة، حين أرشد لكل ما يحقق ذلك، من مفاهيم، وقيم، ومبادئ، تحقق منهجها المجدي المؤثر في المدعوين، لتؤتي ثمارها من نتائج مرجوة .

وقيّد الدعوة بقيود، وضبطها بضوابط، كي يضمن سلامة المنهج الدعوي، وخلوه من أدنى فكر منحرف قد يؤثر في مجال الدعوة، أو يضر به .

تعتبر الدعوة إلى الله تعالى مهمة الأنبياء عليهم السلام الأولى، وهي ملقاة على عاتق كل مسلم، بحيث يتوجب عليه القيام بمهمة الدعوة، على قدر إمكاناته ومؤهلاته، على الأقل على من يملك أهلية الدعوة فيهم، كالأسرة والأهل والأقارب؛ لأن الدعوة تهدف في الأصل لإقامة شرع الله تعالى، كلٌ من مكانه، وحسب استطاعته، وبقدر الممكن والمتاح له .

المنهج الوقائي الحق أراد من عموم الخلق أن ينظروا للقواسم المشتركة فيما بينهم، ليتعايشوا إخوة في الإنسانية، التي جمعتهم في نسيج أممي واحد، وحينها فقط تستطيع الأمة المسلمة القيام بواجب الدعوة، وتبليغ الرسالة المحمدية، وإيصال دين الله تعالى لعموم الخلق، لتطال الدعوة عموم أصقاع الأرض، أمماً، وشعوباً،

ومجتمعات . ذلك هو مفهوم الرحمة المهداة للخلق، وهو محمد ﷺ بما جاء به من دين حنيف، وشرع قويم، خاطب به عموم الثقلين، وإلى قيام الساعة، مراعياً تحقق المصلحة منها والمنفعة فيها، محاولاً البعد عن المفسدة والتحرز من الوقوع في المضرة، التي قد تنشأ .

وهكذا تبين أن القرآن الكريم هو بالفعل منهج وقائي تام، تضمنت آياته، وتعاليمه، وحدوده، وأحكامه، بوجه عام، لكل ما من شأنه تحقيق عموم المصالح والمنافع، كما تضمنت كل ما من شأنه النهي عن عموم المفاسد والمضار . وبذلك يتحقق إقامة شرع الله تعالى كما أمر سبحانه وتعالى على الوجه المطلوب، من خلال المنهج الوقائي المتضمن الشرع القويم .

وبهذا يكون القرآن الكريم قد تكلم عن جملة الفوائد الدنيوية، المتحققة للخلق، جراء تطبيق منهجه الوقائي، والذي بدوره سيجعل الإنسان يقيم حياة سعيدة ينعم فيها . وهذا يعني أن الإنسان كلما أقام المنهج الوقائي، ازداد نعيمه في حياته، وجنى الثمار الطيبة من ذلك، وصدق سبحانه وتعالى القائل في آيات عديدة من كتابه العزيز : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ . والفلاح ولا شك هو مطلب كل مسلم، وقد رتبه الله عز وجل وبناه على مسألة التمسك بدينه الحق، وإقامة شرعه الصدق، وذلك لا يكون إلا بالتقوى التي بها تتحقق معية الله تعالى لخلقه، وصدق جل في علاه القائل في محكم كتابه العزيز في سورة البقرة : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ .

وإجمالاً ! فقد تحقق بهذا أن المنهج الوقائي القرآني يعد صلب هذا الدين الحق، وقوام روح تعاليمه بوجه تام، في كافة جوانب الدين، وهذا في حد ذاته وقاية له من أمراض القلوب، والعقول، والنفوس، ووقاية له من أمراض الأبدان، والأجساد،

والجوارح . لماذا ؟ لأن شرع الله تعالى حقق بالضبط النفع للجميع، من غير أن يتطرق الضرر، أو الأذى، والفساد، لأي طرف من الأطراف .

فليس في شرع الله تعالى نفع فرد على حساب الآخر، وإنما هو نفع شامل أكيد، يخص الفرد بوجه ضيق، ومن ثم يتسع فيشمل الأسرة، وهكذا يتسع ويتسع حتى يشمل كل فرد وأسرة؛ فيعم المجتمع بوجه عام .

وهكذا ! حقق القرآن الكريم مفهوم المنهج الوقائي بكلياته وتفصيلياته، من خلال اعتنائه بكل نواحي الحياة المادية أو المعنوية، في رباط وثيق لا ينفك عن بعضه بعضاً .

تكاملت تشريعاته وتعاليمه، فكان رحمة واسعة من الله تعالى تفضل به على عباده، شرعه وأمر بالأخذ به، ينظمون به حياتهم، ويضبطون بتعاليمه معيشتهم وتصرفاتهم؛ حتى لا يشقى الخلق في دنياهم، في ظل فوضى عارمة، وانفلات قيمي، وانقسامات متناحرة، لا حدود لها، منهج وقائي متكامل تام، بيّن أن الوقاية مفهوم عام، شمل كل نواحي الحياة، وليس مجرد مفهوم جاء ليعالج جزئية، أو قضية ما وحسب .

الفصل الثاني : مجالات المنهج الوقائي في القرآن الكريم :

وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : حفظ العقل .

المبحث الثاني : حفظ الدين .

المبحث الثالث : حفظ النفس .

المبحث الرابع : حفظ العرض .

المبحث الخامس : حفظ المال .

توطئة :

جاء في القرآن الكريم كافة مقاصد الشريعة الإسلامية على رأسها حفظ الضرورات الخمس وهي : حفظ العقل، والدين، والنفس، والعرض، والمال .

كل مقصد من تلك المقاصد، تناوله القرآن الكريم بعناية تامة، وأبرز كل ما من شأنه ضمان وقاية الإنسان بالدرجة الأولى، ومن ثم سلامته، وتلبية حاجياته وضروريات حياته . وسيظهر ذلك خلال هذا الفصل .

المبحث الأول : حفظ العقل :

العقل هو محل الإدراك، ومحور الأفكار، ومركز التفكير؛ والاختيارات بين البدائل، والممايزة بين الأمور عند الإنسان، ومن خلاله يدرك الفرد كل ما حوله[1]. وقد أعطاه الله تعالى تلك القدرة ليفرق بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال . وقد جاء الأمر بحفظ العقل في عموم الشرائع السماوية، والله سبحانه لم يكلف الإنسان إلا بعد تمام عقله، وأهليته الأهلية الكاملة؛ لأن العقل متى فُقِد؛ سقط التكليف مباشرة، كسقوطه عن الصغير والمجنون .

بل إن العقل متى وقع تحت طائلة الإكراه، أو الإضطرار، سقطت عنه مؤاخذة التكليف مباشرة بذلك الطائل، قال تعالى في سورة النحل : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦ ﴾ . فإذا سقط الكفر بالإكراه فما سواه أسقط ولا شك .

لذا جاء في الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ : (**إن الله قد تجاوز عن أمتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه**)[2]. وقوله ﷺ في الحديث النبوي الشريف الآخر : (**رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يكبر، وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق**)[3].

---

[1] الشعراوي . تفسير . ج٩، ص٥١٥٨ . قال : "والقلب هو محل القضايا التي انتهت من مرحلة التفكير العقلي، وصارت قضايا ثابتة لا يبحثها العقل من جديد" .

[2] رواه ابن ماجة، (٢٠٤٣) . وصححه الألباني من سنن ابن ماجة .

[3] رواه أبو داود، (٤٣٩٨ و٤٤٠١-٤٤٠٣) . الترمذي، (١٤٢٣) . النسائي، (٣٤٣٢) . ابن ماجة، (٢٠٤١) .

وقد ذم الله تعالى كل من صم أذنيه عن سماع صوت العقل، وأعرض عنه، بقوله جل في علاه في سورة الأنفال : ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ . إذن إلغاء العقل يعني إلغاء معالم الفطرة المطمورة في الإنسان .

وقد حوت آيات القرآن الكريم في مجملها؛ كل وظائف العقل ومهامه، ليعي المرء كل ذلك، ويدرك المقصد العام، ويعرف مراد الله سبحانه منه . فحفظ له كل ما يجعله يقوم بوظيفته الأولى، ومن ثم حفظ به كل ما يحقق ذلك ويؤيده .

وقد كان حديث القرآن الكريم عن العقل وما يخصه بوجه عام، من ناحيتين اثنتين، سأتناولها في مطلبين اثنين :

المطلب الأول : مظاهر حفظ العقل .

المطلب الثاني : مقاصد حفظ العقل .

المطلب الأول : مظاهر حفظ العقل :

عنيت تعاليم القرآن الكريم بحفظ العقل من كل عطب، وأحاطته بجملة من القيود والضوابط، التي تضمن الحفاظ عليه من الانجراف خلف أي من الانحرافات، والشطحات، والآراء، والأفكار، والوساوس .

لذا نجد أن القرآن الكريم في حديثه عن العقل قد وضع له منهجاً يسير عليه، لا وجود لمنهج أفضل منه، ولا أحسن، حماية لقدراته، وطاقاته، وإمكانياته، ضمن له بذلك الوقوف على مراداته؛ والسلامة من المهالك ومواطن العطب، ولم يكلفه إلا بعد تمام رجحانه، حينها كلفه بالتشريع، وخاطبه بالمقاصد والمرادات .

المنهج الوقائي في تشريعاته لم يلزم الإنسان به إلا بعد تجاوزه مرحلة التمييز، التي خلالها يكمل عقله، ويرشد فكره، ويبدأ يفرق بين الأمور، ويحسن الاختيار بين البدائل، رشّد حينها القرآن الكريم الإنسان، من خلال إرسائه مفاهيم، وقيم، ومبادئ، وضوابط، وقيود، أرادها أن ترسخ في العقل في سن جوهري مبكر فتصبح من أولوياته المسلّم بها التي لا يحيد عنها . وأهم تلك المظاهر :

١- قيده بالعقلانية ودلالاتها، وأمره بالتعقل في كل أموره، وجعل ذلك دليلاً له على كل خير، وبر، وحق، ونور، ورشد، وهدى، وفي الوقت نفسه عصمة له من كل زيغ، وضلال، وانحراف، وفساد، ومنكر، وباطل، وسوء، قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ ﴾ .

٢- حفظ له مكانته المادية، وحرم عليه كل ما من شأنه أن يضر به، أو يذهبه، ولو لوقت قصير، يسقطه في الخبال والهذيان؛ لأن ذلك يعني غاية التعدي عليه، ومخالفة مراد الله تعالى منه، حين جعله أساس التكليف، والوعاء الصالح لتلقيه؛ وذلك لا يتأتى إلا بحضوره، والمحافظة عليه، قال سبحانه في سورة المائدة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ .

٣- رفع عنه الحرج متى أضطر أو أكره على شيء؛ لأن الحرج مانع له من القيام بوظيفته، على الهيئة السليمة، قال تعالى في سورة النحل : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

٤- سلّحه بفطرة سليمة مطمورة فيه، فطر الله تعالى عليها كل الخلق، دالة إياهم على طريق الحق، والهدى، والنور، ما لم تتعرض لتغيير وتبديل قال تعالى في سورة الروم : ﴿ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

٥- زوّده بالشعور والحس، ليوقفه على الحق، ويوقظه من غفلته، بشد انتباهه لكل ما يرى ويسمع؛ لكل ما حوله، من مشاهدات كبرى في الكون، ومن مظاهر قدرة ربانية مطلقة، كقوله جلت قدرته في سورة البقرة : ﴿ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ .

٦- دعّمه بدلالة الوعي ولفت النظر، لما يجب أن يلتفت إليه، وحذره من قلة الوعي، وضيق الأفق، والتغافل الصرف عن الحق، كقوله تعالى في سورة يونس : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ . دعوة للعقل لينظر ويعتبر .

٧- غرس فيه دلالة البصيرة، والتبصر، تهديه للحق، وتعينه على القيام على أتم وجه وأحسنه بوظيفته التي وجد لأجلها، كقوله تعالى في سورة الذرايات : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ . بعين البصيرة قبل عين البصر .

٨- جعله حكماً على نفسه، وأقواله، وأفعاله، ليقف على الحق بذاته، من غير أن يؤثر عليه أحد؛ متى أنصف نفسه من نفسه، كقوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

٩- أمدّه بذاكرة تذكره، وجعل المؤمنين الخاشعين أول المنتفعين بها، لما عندهم من رصيد إيمان، يدهوعم للتذكر، ولإعمال عقولهم في ذلك؛ أكثر من غيرهم ممن لا إيمان له، أو ممن ضعف إيمانه قال ربنا تبارك وتعالى شأنه في سورة الذاريات : ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

١٠- جعله مهيأً لتقبل الحق، متى صفى ذهنه، من المؤثرات الخارجية التي عليه، وأنصت لصوت الحق الذي بداخله، قال تعالى في سورة سبأ : ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

١١- حذره من وخامة الحكم الجائر، متغافلاً عن الحق، متجاهلاً صوته، منكراً إياه، غير مفرق بين الحق والباطل، رغم كونه مزوداً بدلالة التفريق بين المتناقضات، والمتباينات، قال تعالى في سورة الجاثية : ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

١٢- خوفه من عاقبة التعامي، وصم الأذنين عن سماع صوت الحق الذي بداخله، الدال على مراد الله تعالى منه، قال سبحانه في سورة الكهف : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ .

١٣- بيّن له عاقبة الانسياق خلف غيّه، في ركاب الغفلة والضياع، وإلغاء دلالات الفكر السليم، والمنطق الصحيح قال تعالى في سورة يونس : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَـٰتِنَا غَـٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ .

١٤- أمره بالسير في الأرض، ليعتبر بمنازل الهالكين من قبل، ممن كفر وجحد، وأنكر وأشرك، فيعمل فيها النظر، حتى لا يلاقي ذات المصير الأليم، وكفى بذلك تخويفاً له، وتحذيراً من الوقوع في مثله، قال تعالى في سورة النحل : ﴿ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

١٥- لفته للنظر في مشاهد القدرة الربانية، والمظاهر الكونية، ولسماع صوت الحق، الذي يؤيد ما بداخله من حقائق يمر بها، على اعتبار أن السمع وسيلة للإدراك والتعقل، قال تعالى في سورة القصص : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ .

١٦- أمره بالاعتبار بالحوادث، والوقائع، ومجريات الأمور، وما يجري عليه من أقدار قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾ .

وهكذا تبين أن القرآن الكريم اعتمد في كل خطاباته على مسألة العقلانية لدى الإنسان، وأنها متى فقدت سقط التكليف عنه، جملة وتفصيلاً . فكان ولا بد من حفظ العقل ليقوم بما أمره الله تعالى به على أتم وجه وأحسنه .

المطلب الثاني : مقاصد حفظ العقل :

خاطب القرآن الكريم العقل بكل وظائفه[1]، وبمختلف الأساليب، والصيغ، والألفاظ، ليفهم ويعي، ليكون قادراً على تلقي شرع الله سبحانه، ومن ثم يطبقه في حياته، فيتحقق بذلك؛ المنهج الوقائي تماماً، حين يسير المرء على منهج خالقه العظيم، ودينه القويم، وعلى نور من ربه جل ربنا في علاه .

وقد مايز القرآن الكريم في تلك الأساليب، والسياقات، والألفاظ، والعبارات، ليستحث العقل، وليوافقه في كل أحواله، وحالاته، فلا يجد العقل حينها مساغاً للتكذيب، أو التشكيك، أو التغافل، أو الإعراض، أو الاعتراض .

وبهذه الطريقة رسم حديث القرآن الكريم للعقل طريقاً قويماً، وصراطاً مستقيماً له، متى سار عليه، كما حفظ عليه كل قدراته وطاقاته، ليستعملها في الخير، وفيما أنيط به ووجد من أجله . وفي الوقت نفسه حماه، وضمن له السلامة من كل أدوائه، ومنع عنه كل الأسباب المؤدية إلى ذلك، من أي طريق كان، ببيان سبيل الحق، والنور، والهدى، والخير، والرشاد، بما لا يدع مجالاً للشك أو الريبة فيه .

ولهذا جاءت كل خطابات القرآن الكريم متضمنة بيان الله جل في علاه، لمسألة فهم العقل لذلك البيان الإلهي، ومن ثم الانطلاق نحو تنفيذ ما أمر به بكل وضوح، حين :

١- أقام به الدين الحق، حين رتب الأمر بعموم التكاليف على سن البلوغ، وقت إدراك المرء مرحلة كمال الأهلية[2]؛ ولا تكليف لمن فقد عقله، أو لمن لم تكتمل فيه الأهلية الشرعية؛ لتلقي التكليف، وقد أعطى سبحانه العقل فترة كافية لينضج قبل

[1] في سياق الكلام كناية، والمقصود : أن القرآن الكريم خاطب أهل العقل، وليس العقل .

[2] تتحقق كمال أهلية الأداء ببلوغ الحلم عاقلاً .

البلوغ، ولم يحاسبه إلا بعد كمال رشده، ويتهيأ ليكون صالحاً للقيام بوظيفته، التي كلفه الله تعالى بها قال سبحانه في سورة النور : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

٢- صقل[١]؛ به الفكر، حين وضع فيه قيوداً كثيرة، تضبط حركة تفكيره، من الانطلاقات المفرطة، والخيال، والشطحات، وجميع الانحرافات، التي لا ضوابط لها، وهي قيود المنطقيات[٢]، والبدهيات[٣]، والمسلمات[٤]، والأولويات[٥]، العقلية التي لا ريب في دلالاتها على الحق، بكل وضوح، لكل من وقف عند حدودها قال جل ربنا في علاه في سورة البقرة : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

٣- نظم به الحياة المعيشية؛ حين شرع الحدود، وأمر بها، وبين أن ذلك من صفات أولي الألباب، قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ .

٤- قوّم به النفس، حين استحث العقل لما كان يجب أن يفقهه بذاته، من حقائق واضحات، ظاهرات بينات، قال سبحانه وتعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ

---

[١] مجمع اللغة العربية . المعجم الوسيط . ج١، ص٥١٨ . "صقل كلامه هذبه ونمقه" .

[٢] المنطق : علم يعصم الذهن من الخطأ، يعتمد على التفكير السليم .

[٣] البدهي : الذي لا يحتاج إلى نظر أو دليل .

[٤] المسلمات : قضايا تسلم من النقاش، يتفق عليها الجميع .

[٥] الأوليات : ما يجزم بها العقل بمجرد تصورها .

أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ .

٥- حفظ به المال؛ حين رتب مسألة العطاء، والتصرف الرشيد فيه، على إيناس الرشد، وبلوغ النضج من العقل، ليكون مسؤولاً عن كل تصرفاته قال تعالى في سورة النساء : ﴿ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ﴿٦﴾ ﴾ .

٦- وقى به العرض؛ حين أمر بوجوب صيانته، وبيّن له منافع ذلك، والمصالح المترتبة عليه، وحين أظهر له مفاسد امتهانه، وأخطار ضياعه، وخوفه من عواقب جريمة الزنا، ومقارفة الفواحش، والوقوع في المنكرات بأنواعها، فالعاقل أحفظ لعرضه وله أصون، قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ .

٧- ضمن الله تعالى للعبد الفوز بالآخرة؛ حين وضح له أن طريق النجاة، والعبور إلى الآخرة، وحين بيّن له أن الدنيا دار ممر، وهي مزرعة للآخرة، فحذر من الركون إليها، ونسيان الهدف والمقصد الرئيس من وجود الإنسان فيها، قال جل في علاه في سورة الأنعام : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

وبهذا اتضح أن كل خطابات القرآن الكريم وجهت لأهل العقل؛ لأن به حفظ كل الضرورات الأخرى، وبفقده تضيع ولا ريب كل الضرورات .

وتبين أن القرآن الكريم حين تحدث عن العقل، تحدث عنه من خلال المواقف الصادرة عنه غالباً، أو التي تبين الخلل، والقصور، في إحدى وظائفه؛ التي بنى عليها القرآن الكريم الحكم عليه؛ من كونه لا يعقل، لا يتفكر، لا يتدبر، لا يفقه، لا يتذكر، وهكذا !

ومن خلال ما تقدم اتضحت لنا مظاهر حفظ العقل ومقاصده، في المنهج الوقائي القرآني، وفي ذلك بيان لغاية عناية الله تعالى به .

المبحث الثاني : حفظ الدين :

المطلب الأول : العقائد .

المطلب الثاني : التشريع .

المطلب الثالث : الأخلاق .

المبحث الثاني : حفظ الدين :

الدين[1]، هو المنهج السماوي الرباني القويم لعموم الخلق، الذي به نزل القرآن الكريم، ليعرف الخلق شرع ربهم سبحانه وتعالى الذي فيه .

ومن الأولويات التي جاء بها القرآن الكريم بكلياته، وتفصيلياته، أنه جاء ليرسي قواعد هذا الدين على مراد ربنا جل جلاله، في منهج متكامل، ارتضاه عز وجل لعموم خلقه، تحقيقاً لقوله تبارك وتعالى في سورة المائدة : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴿٣﴾ ﴾ .

وبهذا كان القرآن الكريم جملة وتفصيلاً، منهجاً وقائياً تاماً، من أولوياته التي جاء بها، إرساء مفهوم الوقاية بصفة عامة .

يأتي في مقدمة ذلك تحقق الوقاية في الجانب الديني؛ من خلال حفظ الدين وسلامته؛ لأنه قوام المسلم في حياته الدنيا والأخرى .

فبحفظ الدين يسلم الفرد في حياته، وتنتظم حركة العباد فيما بينهم، وفي مجتمعاتهم . ويعرف كل واحد منهم، كيف يعبد ربه سبحانه وتعالى على بصيرة من أمر دينه .

وحين تحدث القرآن الكريم عن مسألة حفظ الدين، فصّل الحديث وتوسع ليحيط بكل جزئياته، مما يحتاجه المسلم، والتي قد تدور بخلده، محاولاً فهمها، وجزئيات الدين كثيرة كما تبين . لذا مايز القرآن الكريم في تناولها، بحسب مدى الاحتياج والأهمية .

[1] الدين : ما يعتقده المرء، والدين السماوي : المنهج الإلهي الذي جاء به الرسل عليهم السلام .

وقد ورد في القرآن الكريم جملة العلوم الدينية، والدنيوية، النافعة للخلق، وجعل جماع ذلك إلى ثلاثة محاور . سأتناولها خلال ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : العقائد .

المطلب الثاني : التشريع .

المطلب الثالث : الأخلاق .

المطلب الأول : الحديث عن العقائد[1] :

في هذا المجال تحدث القرآن الكريم عن كل ما يخص أمور العقيدة والتوحيد، بادئاً بكل ما يتعلق بالله تعالى، من كونه هو الرب، الخالق، الإله، المعبود، الرازق، المحي، المميت، الذي بيده ملكوت كل شيء، وله مطلق القدرة، في هذا الكون، وله مآل كل شيء، وهو الذي شرع الدين القيم للخلق، ليعبد على حق كما أمر سبحانه وتعالى .

ثم يذكر كل ما يتعلق بأمور العقيدة الأخرى، لترسيخ معالم الإيمان، وتقوية جانبه، ولإرساء الجانب الوقائي الصحيح، لكل ما يحفظ به الدين، مبتعداً عن كل ما قد يوجد الوهم، أو يولد سوء الفهم، حتى لا يقع الناس في أدنى حرج من أمر دينهم، وحتى لا تختلط الأفهام، فتلتبس عليهم قضايا العقيدة والتوحيد وحقائقه، التي يجب أن تكون واضحات بينات . في إرساء أصولها؛ مع بيان ما يتوجب بيانه في مقامه، حتى لا تلتبس على العباد، أمور عقيدتهم .

القرآن الكريم أفاض الحديث عن العقائد مبيناً كل دقائقها، ليبين حقيقة الأمر، ويرد على كل شبهة باطلة، وادعاء كاذب . وإجمالاً فقد دار حديث القرآن الكريم عن العقائد حول ثلاثة محاور :

المحور الأول : الحديث عن الله جل في علاه : في هذا المحور تناول القرآن الكريم كل ما يخص ربنا جل جلاله، من أسماء وصفات، وقدرة مطلقة، تبين عظم الله عز وجل، وعظيم قدره، ليتبين للخلق جميعاً، حقيقة أمر خالقهم بما لا مرية فيه، وليعرف الجميع من هو ربهم جل جلاله، فيؤمنوا به حق الإيمان على بصيرة من أمرهم .

[1] العقائد : هي الأمور التي يجب أن يصدق بها القلب حتى تصبح يقيناً فيه لا يخالطها شك .

المنهج الوقائي عرّف بواجب الوجود سبحانه وتعالى، ليقي الإنسان من حيرة البحث عن موجد الكون، وليقفه على مراد الله تعالى منه، والحكمة الأصيلة من قضية الوجود في الدنيا، حين :

١- بدأ الحديث عن مسائل العقائد، بتوحيد الربوبية[١]، لإرساء ما يخص الرب سبحانه وتعالى، من أنه الخالق العظيم، جل ربنا في علاه، رب كل شيء لا سواه، في آيات كثيرة منها قوله عز وجل في سورة الدخان : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ ﴾ .

٢- تناول الحديث توحيد الإلوهية[٢]، وأنه سبحانه الإله الحق، المستحق للعبادة، في آيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة يوسف : ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

٣- ذكر أسماء الله تعالى وصفاته فقال سبحانه في سورة الأعراف : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ .

وقد بيّن سبحانه حقيقة مدلولاتها، بأنها تليق به تعالى شأنه، فقال عز وجل في سورة الشورى : ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ .

٤- أظهر أن الكون بما فيه هو خلق لله تعالى فلا قادر، ولا مدبر، ولا متصرف، فيه سواه سبحانه، في آيات كثيرة من كتابه العزيز . كقوله جلت قدرته في سورة

---

[١] توحيد الربوبية : هو إفراد الله عز وجل بأفعاله كالخلق والرزق والتدبير، إذ لا خالق إلا الله تعالى .

[٢] توحيد الألوهية : وهو إفراد الله تعالى بأفعال العباد، فهو المستحق للعبادة هو الله تعالى سبحانه .

الزمر : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣ ﴾ .

٥- بيّن أن مسألة الإحياء والإماتة أمر بيد الله تعالى وحده، لا قادر على ذلك سواه، وآجال العباد عنده، لكلٍ منهم أجله المحتوم، في آيات كثيرة منها قوله سبحانه في سورة الحج : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦ ﴾ . والآيات التي تكلمت عن الموت كثيرة ومستفيضة، جملة منها تكلمت عن مسألة إحياء الخلق من العدم، وجملة من الآيات تكلمت عن مسألة قدرة الله عز وجل على إعادة الخلق بعد إماتته .

٦- أوضح أن الرزق بيد الله سبحانه، وله في تقسيمه عز وجل حكمة بالغة، لتقوم حياة الناس فيما بينهم على أساس التكافؤ والاحتياج، لبعضهم بعضاً، في آيات كثيرة كقوله تعالى في سورة هود : ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ ﴾ .

٧- ربط الهداية بنوعيها بالله عز وجل، وهما هداية الإرشاد؛ والبيان للمنهج الحق، وهداية التوفيق والمعونة على قبوله والأخذ به، في آيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُمۡ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِهِۦۖ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا ٩٧ ﴾ .

وبهذا تبين أن القرآن الكريم تحدث عن الله تعالى، وعن أسمائه وصفاته، ليعلم البشر جميعاً حقيقة ربهم الخالق، ومعبودهم المشرع، بما ورد فيه .

المحور الثاني : النبوة والرسالة :

حوى حديث القرآن الكريم في هذا المحور مجمل ما يخص الأديان، والنبوات، والرسالات السابقة[1]، حين عرض جانباً من قصص الأنبياء عليهم السلام، مبيناً أهم الأحداث، التي من خلالها ظهر جانب كبير من جوانب الوقاية، ثم جاء التوجيه المناسب لكل قوم أعرضوا عن مراد الله تعالى .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : "فالسعادة هو أن يكون العلم المطلوب هو العلم بالله وما يقرب إليه -إلى أن قال- ما أخبرت به الرسل فالعلم الحق هو ما أخبروا به والإرادة النافعة إرادة ما أمروا به"[2].

ومجمل ما جاء به الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، يدور حول كل ما يخدم المجال الديني الدعوي عامةً، والمجال الوقائي من حيث الخصوص، الذي جاء به خير خلق الله تعالى، وهم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ليأسى بهم الناس، وليحذروا من مغبة الانحراف عن العقيدة الصحيحة، حيث :

١- جاء حديث القرآن الكريم عن الدين معيّناً له؛ مؤكداً على كل ما جاءت به الأديان السماوية، من حقائق التوحيد، والنبوة، مظهراً بطلان ما سواه، ومدى انحراف أتباعها عنها، قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ .

[1] الرسول : كل من بعثه الله تعالى ليبلغ دينه للخلق .

[2] ابن تيمية . النبوات . ط١، دار الكتاب العربي . ص١٤٧ .

٢- أكد حديث القرآن الكريم على وجوب حماية حياض الدين الحق، بوجوب الإخلاص فيه لله سبحانه والانقياد التام له عز وجل فقال تعالى في سورة الأنفال : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

٣- غرس كل ما من شأنه أن يؤّسس اليقين في القلب، لبلوغ تمام الإيمان، والتحذير من سوء عاقبة الشك والريبة فيه، فقال تعالى في سورة الحجرات : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

٤- بيّن جملة أركان الدين، المعروفة بأركان الإيمان، التي تبنى عليها مقتضيات العقائد، فقال تعالى في سورة النساء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ .

٥- بيّن حقيقة القدر، وأن كل ما يجري على الإنسان في دنياه، إنما هو من عند الله تعالى قدراً وقضاءً؛ ابتلاء منه سبحانه، في آيات كثيرة، قال تعالى في سورة القمر : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

٦- أظهر أن أساس إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام، إنما هو لإقامة الدين الرباني الحق وحفظه، وإقامة شرعه الصدق، وصونه . قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

٧- بيّن أن دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام واحدة، فالكل من عند الله تعالى، وجاء يدعو إليه عز وجل، في آيات كثيرة منها قوله سبحانه في سورة الحجر : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ .

٨- أظهر أن لكل الرسالات السماوية أعداء من أهل الكفر، المعانين والمشركين المكذبين؛ والله تعالى غالب على أمرهم، ومظهرٌ دينه، رغم إعراضهم وتكذيبهم بكل أنواع المكر، كقوله تعالى في سورة التوبة : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

٩- أكّد على أن محمداً ﷺ هو رسول من جملة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، قال جلت عظمته في سورة البقرة : ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ ﴾ .

١٠- أوجب الطاعة لرسول ﷺ المبلغ عن ربه سبحانه شرعه القويم، وأن الله جل في علاه لا تتحقق طاعته إلا بطاعة رسوله ﷺ، في آيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة الحشر : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴿٧﴾ ﴾ .

١١- ذكر بعض معجزات[1]؛ الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، بما تقوم به الحجة على أقوامهم، وفي ذلك بيان لمنهج الله تعالى، حين يؤيد رسله بما يثبت صدق بلاغهم عن ربهم سبحانه، قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ .

---

[1] المعجزة : الأمر الخارق للعادة، يؤيد به الرسول والنبي من عند ربه سبحانه .

١٢- عرض حال الأمم السابقة من رسالات سماوية، ومواقفهم العدائية من الدين الحق، الخاتم لما قبله من شرائع ربانية ورسالات سماوية، قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ﴾ .

وبهذا اتضح أن حديث القرآن الكريم عن النبوات، والرسالات، والأديان السابقة، انصب على مسألة بيان أن منهج الدين واحد، وهو من عند الله تعالى، لتقوي جانب الإيمان بالله تعالى، ولتبين أن الله سبحانه هو المعبود المشرع لا سواه . وإن تعددت المناهج التشريعية، زماناً ومكاناً، فذلك لحكمة إلهية لمراعاة مقتضى حال كل قوم .

المحور الثالث : الغيبيات[1] :

في هذا المحور ركز حديث القرآن الكريم على جانب واسع من الغيبيات، سواء الدنيوية التي تتعلق بجانب النبوات والرسالات السابقة، والملائكة الكرام عليهم السلام، وأمة الجن، وما إلى ذلك، أم الغيبيات الأخروية التي تتعلق بالجنة، وبالنار، وباليوم الآخر، وأهواله، وأحواله، وكل ما يخصه، أو القبر وما فيه . ومجال الغيب من أهم ما يقوي جانب الإيمان . لذا عد سبحانه وتعالى الإيمان بالغيب من أميز ما يميز المؤمن الصادق، عن غيره من الناس، لأنه يوقف المسلم على مرادات الدين، ويجعله ينبذ الخرافات والأساطير، وهذا في حد ذاته يؤيد جانب الدين الحق، وفي الوقت نفسه صيانة للإنسان عن لوثات الأفكار، ودوامة التخبطات . لذا أخذ حديث القرآن الكريم عن الغيب مجالاً واسعاً، حين :

[1] الغيب : كل ما غاب عن الإنسان، سواء كان من الأمور الحاضرة أو الماضية أو المستقبلة .

١- تحدث عن صدق الإيمان، وتحقيق خشية الله سبحانه، فتكلم عن المؤمنين، وأهم صفاتهم، في آيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة الملك : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ .

٢- تكلم عن المنافقين، وعن بعض مواقفهم، وأحوالهم، وعن حقيقة كذبهم، ومدى نفاقهم في دينهم، وقاية للإنسان من النفاق؛ الذي يقدح في عقيدته، وفي دينه عامةً، محذراً من سوء النفاق والتعامل به، كقوله جلت عظمته في سورة النساء : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ .

٣- أوضح مفهومي الإسلام والإيمان[1]، وبين معانيها، في آيات عدة، ليعرف المسلم الفرق بين ما يخص القلب؛ من عقائد، وما يخص البدن؛ من أعمال، منها قوله تعالى في سورة الحجرات : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ ﴿١٤﴾ ﴾ .

٤- ربط قضية الدين الحق بمسألة الإيمان بالله تعالى، وباليوم الآخر، وبمسألة الجزاء والحساب، ترغيباً وترهيباً، في آيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ .

---

[1] إذا قُرن الإسلام والإيمان في نص : فيراد بالإسلام الأعمال الظاهرة من سائر العبادات، ويراد بالإيمان الاعتقادات الباطنة . وإذا افترقا في نص شمل كل واحد منهما الآخر .

٥- علق مسألة نجاة الإنسان في الآخرة على مدى تمسكه بالدين الحق، الذي سيقيه من كل ما يضر به قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ .

٦- تكلم عن الملائكة الكرام عليهم السلام، وعن أمور كثيرة مما يخصهم، كأسماء بعضهم، وصفاتهم وأحوالهم، ووظائفهم وما إلى ذلك، في آيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة التحريم : ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ .

٧- ذكر أمة الجن، وتكلم عن بعض أحوالهم، وشؤونهم، ورسلهم، فبين بذلك مدى صلاحية هذا المنهج الوقائي الحق، وأنه لعموم البشر، قال تعالى في سورة الجن : ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ ﴾ .

٨- كشف بعض الأمور الغيبية، في الماضي، حال عرض بعض أحوال الأمم السابقة، ليثبت بذلك جانب الإعجاز لهذا الكتاب العزيز، ولا سيما لمن كان موجوداً زمن التنزيل، وليثبت في المستقبل جانب الإعجاز العلمي في الكون، قال تعالى في سورة الفرقان : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ ﴾ .

٩- تكلم عن أهوال يوم القيامة، تخويفاً به، وتحذيراً منه، للاستعداد له، ولما فيه من أهوال عظام، في آيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

١٠- تحدث عن الجنة والنار، وعن أوصافهما، وأحوال أهليهما فيهما، وعن المصير المحتوم، وما إلى ذلك، ترغيباً وترهيباً، مبيناً الحكمة من خلقهما، كقوله تعالى في شأن الجنة في سورة الغاشية : ﴿ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ ﴾ . وقال تعالى في وصف النار من سورة الليل : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾ .

وهكذا تبين أن القرآن الكريم تحدث عن الغيب، من خلال جعله سبباً من أسباب تقوية الإيمان، وترسيخ العقيدة الصحيحة، التي جاء بها الرسل عليهم الصلاة والسلام، من عند الله جل في علاه . فكان علامة قوية على صدق دين الله تعالى ومنهجه الوقائي الحق .

المطلب الثاني : الحديث عن التشريع :

في هذا المجال تحدث القرآن الكريم عن جانب التشريع الإسلامي[1]؛ الذي يمثل صلب هذا الدين الحق وشرعه المطهر، من خلال الحديث عن الأوامر، والنواهي، والأحكام، والحدود، وما إلى ذلك . مبيناً أن القرآن الكريم هو المنهج الرئيس، والمصدر الأول، لذلك التشريع .

لذا كان حديث القرآن الكريم عنه بصورة مجملة دون تفصيل؛ لأن القصد من إيراد آيات التشريع، بيان أن الدين لله تعالى، المعبود المشرع الحكيم، الذي وجبت طاعته وعبادته لا سواه عز وجل، كما أمر وشرع وبيّن جل في علاه .

وبالتالي كانت السنة النبوية المطهرة مليئة بالتشريعات، والتفصيليات، لسائر العبادات، والمعاملات، والأحكام، والحدود .

وجملة التشريعات التي وردت فيه، تبين مدى متانة هذا الدين، وكيف أن الله جل في علاه قد وضع له شريعة سمحة، لها القدرة على مسايرة الزمان، والمكان، ومراعاة مقتضى الحال، بما يحقق للخلق عموم المصالح والمنافع، ويدرأ عنهم كافة المفاسد والمضار .

وإجمالاً فقد تناول حديث القرآن الكريم موضوع التشريع الإسلامي بطريقة موسعة، يندرج ضمن قسمين اثنين :

القسم الأول : عموميات مقاصد التشريع :

في هذا القسم ذُكرت عموم مادة التشريع الإسلامي، مبيناً أن الدين الحق له شريعة مطهرة خاصة به وجب إتباعها، تناولت جملة التشريعات الإسلامية، من

[1] الشرع : هو المنهج الرباني . والتشريع : سن القوانين ووضعها .

حيث كونها شريعة متكاملة، ومنهج حق، مظهرة مدى صلاحيته، وغاياته السامية، التي جاء بها ولها، دون تفصيل لموضوعاته، كأحكام وحدود شرعية :

١- فقد جاء في القرآن الكريم بيان أن الدين الحق، هو أساس حفظ حياة الإنسان الحياة السعيدة، وكفى بذلك منهجاً وقائياً . قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ .

٢- بيّن أن لكل أمة ما يناسبها من شريعة ومنهج، يحقق مصالحها في زمانها، فقال تعالى في سورة المائدة : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴿٤٨﴾ ﴾ .

٣- أوضح أن أصل التشريع ما كان في الوسع، وأن الله سبحانه لم يكلف الناس بما هو فوق طاقتهم أبداً، فرفع سبحانه عن خلقه الحرج في الدين، لئلا يشق عليهم، قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ ﴾ .

٤- ذكر أن أساس التفقه في العلم، إنما يكون في الدين، لمعرفة كيفية إقامة شرع الله تعالى في الأرض، وهذا في حد ذاته يعتبر منهجاً وقائياً للخلق، قال سبحانه في سورة التوبة : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ .

٥- أسّس للأخوة في الله تعالى، أخوة الإيمان، التي لا مقياس آخر معها، ولا تفاضل إلا بها، ولا رباط يربط المسلمين فيما بينهم سواها قال سبحانه في سورة الحجرات : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴿١٠﴾ ﴾ .

٦- بين الهدف الأسمى، والمقصد الأعلى، من خلق العباد في هذه الدنيا، فقال تعالى في سورة الذاريات : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

٧- تكلم عن معاملة غير المسلمين، وأوضح كيفية علاقتهم بغيرهم، من أهل الكفر والشرك والأديان الأخرى، قال جلت عظمته في سورة الممتحنة : ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

وهكذا تبين أن القرآن الكريم قد شرع كل ما من شأنه نفع العباد، في دنياهم وأخراهم سواء . تشريع ديني، حياتي، متكامل، لخيري الدين والدنيا؛ وقاية لهم، وغنية عن تلمس أية مقاصد بشرية أخرى .

القسم الثاني : تفصيلات (العبادات والمعاملات والعقوبات) :

في هذا القسم ذكر القرآن الكريم تفصيلاً لأحكام شرعية كثيرة، تحدث عن بعض منها، وما يتعلق به، من خلال تأصيل لها ولشرعيتها . لذا تناول الحديث ثلاثة محاور :

المحور الأول : العبادات[1]:

في هذا المحور ذكر القرآن الكريم أصول العبادات، دون الفروع، والتفصيليات منها، وترك التفصيل للسنة النبوية المطهرة . ركز على الجانب الوقائي من جراء إقامة تلك العبادات، حين بيّن أنها تسمو بروح المسلم، حال تأديتها كما أمر ربنا جل جلاله، وهذا في حد ذاته يعتبر محفزاً له لعمل الصالحات، وفي الوقت نفسه مانعاً له عن اقتراف المعاصي والمنكرات .

خلال ذلك الحديث وجّه القرآن الكريم رسائل إيمانية وقائية، تشحذ الهمم، وتصل العبد بربه جل في علاه، وتبين أن من خالف ذلك فَقَد روح العبادة، وقد يخرج عن دائرة الإيمان متى تهاون في فعلها؛ لأن هذه العبادات تمثل أساس هذا الدين الحق، التي وجب فعلها والقيام بها :

١- فقد تناول حديث القرآن الكريم الصلاة وإقامتها، وبعض أحكامها، وأنواعها كذلك، مضمناً الحديث توجيهات قيّمة، وأهمية بالغة، وثمرات ملموسة، وقاية للروح والبدن، في آيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ** ﴿٢٣٨﴾ ﴾ . والصلاة الوسطى هي صلاة العصر وفي الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ : (**شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً**)[2].

٢- تحدث عن الزكاة وعن بعض ما يخصها من أحكام ومتعلقات، مظهراً آثارها الطيبة، وقاية من شح النفس، وشرورها، في آيات كثيرة كقوله تعالى في سورة البقرة

[1] العبادة : طاعة المخلوق للخالق، وهو ربنا جل في علاه .

[2] رواه مسلم، (٦٢٧) .

: ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ .

٣- ذكر الصوم وبعض أحكامه، وأولى ثمراته الطبية وغاياته السامية، قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ .

٤- تحدث عن الحج، وعن بعض أحكامه، ومتعلقاته، مبيناً مقاصده، وأهدافه، في آيات عدة، ليؤكد على أنه شعيرة كبرى، من شعائر الله تعالى، التي جاءت كي تقي الإنسان . قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ .

٥- ورد الحديث عن العمرة، وأنها شعيرة إسلامية، تحوي مضامين كثيرة، في تحقيق العبودية لله سبحانه قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ .

٦- ذكر صلاة الجمعة، موضحاً غاية تشريعها، وهو ذكر الله تعالى، وما في ذلك من وقاية، للخلق قال عز وجل في سورة الجمعة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

٧- بيّن مشروعية الوضوء، وبيّن صفته، وكفى به وقاية من الأدران، والنجاسات، قال تعالى في سورة المائدة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ ٦ ﴾ .

٨- أورد التيمم وصفته، ليعلم العباد كيفية الطهارة، حال فَقْد الماء حفاظاً لهم، وتيسيراً عليهم، مبيناً أن في الشريعة السمحة أحكاماً يسد بعضها بعضاً، قال تعالى في سورة النساء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا غَفُورًا ٤٣ ﴾ .

وبهذا يلاحظ أن حديث القرآن الكريم عن العبادات تناول الأصول غالباً، في إجمال لأحكامها بقصد تحقيق مقصد أن الدين لله تعالى، من غير أن يتناولها مفصلة بوجه نهائي لحكمة جليلة، وإنما ترك ذلك للسنة النبوية المطهرة .

المحور الثاني : المعاملات :

في هذا المحور تناول حديث القرآن الكريم أصول المعاملات[1]، بشيء من التفصيل لبعض منها . ركز خلال بيان ذلك على الجانب الوقائي للمنهج الشرعي لها، بتوجيه رسائل منهجية وقائية، تبرز كيفيات التعاملات الصحيحة؛ على وجه

[1] المعاملات : الأحكام الشرعية التي تنظم علاقات الأفراد والجماعات، كأحكام النكاح والطلاق والبيوع والأيمان والقصاص والحدود وما إلى ذلك .

يكفل المصلحة للجميع، ويمنع الضرر عن الكل، ويضمن سلامتهم، سواء كانت تعاملات اجتماعية أسرية، أو مالية تجارية، أو غيرها، كل ذلك لينعم الخلق في ظلها متى حققوها في دنياهم، وهذا في حد ذاته يوفر لهم الطمأنينة والارتياح والاستقرار في معايشهم . فمثلاً :

١- ورد الحديث عن المحرمات من سائر الأصناف، من ذوات النسب، والرضاع، والمصاهرة . قال تعالى في سورة النساء : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ .

٢- ذكر النكاح وما يتعلق به؛ ليقيم علاقات الناس في نسق اجتماعي منظم متكامل، لا شبهات فيه ولا توجسات، ولا علاقات مشبوهة؛ تضر بالعلاقات العامة في المجتمع، قال تعالى في الحلائل بعد أن ذكر المحرمات من سورة النساء : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ .

٣- بيّن الطلاق وبعض أحكامه؛ وحالاته، وأهم ما يخص ذلك في عدة آيات قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾ .

٤- تحدث عن الظهار، وعن الإيلاء، وعن اللعان، وما إلى ذلك، وكلها تنظيمات أسرية زوجية، ليبين للناس كيفية صيانة علاقاتهم، ولا سيما الزوجية؛ على الوجه الصحيح، ولم يترك ذلك هملاً بحسب اجتهاد الناس، قال تعالى في سورة المجادلة : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ .

٥- ذكر الوصية وكيفية توجيهها، لكل من كان لديه شيء، حري أن يوصي به، حتى لا يترك المسلم ورثته من بعده في حيرة من أمرهم قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ .

٦- تحدث عن كيفية التعامل مع أهل الكتاب، مبيناً مدى شمولية هذه الشريعة الغراء، لكل الأفراد حتى من غير المسلمين، فأقام بذلك العلاقات الصحيحة بين سائر الخلق؛ وقاية لهم، قال تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ

ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

٧- بيّن أمر الله تعالى للمسلم بالإحسان، في كل شأنه وتصرفاته، ليبعده عن العنف والشدة، حماية له ولمن تحت يده، ولكل من يتعامل معهم، قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ ﴾ .

وهكذا تناول القرآن الكريم المعاملات، من خلال إرساء قواعد لها، ومن خلال ذكر لأهم أحكامها، ضبط بذلك حياة العباد، على منهج وقائي حق، هو خير ما تنتظم به حياتهم الدنيا .

المحور الثالث : العقوبات (الحدود)[1]:

في هذا المحور ذكر القرآن الكريم مجمل الحدود الشرعية، وترك التفصيل لمدلول السنة النبوية المطهرة . ركز خلال بيان ذلك على الجانب الوقائي، لزواجر الحدود، من خلال توجيه رسائل تحذيرية وقائية، لكل من خالف المنهج الحق، ليرتدع عن اقترافها أو محاولة الاقتراب منها، والمنهج الوقائي حين وضع العقوبات، شدد فيها بكل صرامة، بحسب نوع المخالفة، أراد بذلك أن يبين حدود هذه الشريعة الغراء، حتى لا يتجاوزها أحد، فيقع تحت طائلة العقوبة؛ لأن تجاوزها يعني تعدّي شرع الله جلت عظمته، الذي وضع لعباده . فمثلاً :

١- تحدث عن حد الزنا لغير المحصن؛ مشنعاً فعله وجريمته، مشدداً عليه، قال جلت قدرته في سورة النور : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا

[1] الحد : عقوبة مقدرة شرعاً تردع من الوقوع في الذنب .

تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ .

٢- ذكر حد القذف؛ محذراً من الوقوع فيه، صيانة للمجتمع من الامتهان، وردعاً لكل من تجاوز الحدود بلا بينة، قال تعالى في سورة النور : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ .

٣- تكلم عن الديات، مبيناً استحقاقها لصاحبها، وهذا في حد ذاته حماية للجاني، من التعدي عليه بأكثر مما يستحق، وحفظاً لحقوق المجني عليه، كما بيّن حد القتل العمد، والقتل الخطأ، قال تعالى في سورة النساء : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ ﴾ .

٤- ذكر حد الحرابة؛ بكل صرامة، مهولاً فعلها وسوء عاقبتها، قال تعالى في سورة المائدة : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

٥- أورد حدود الجراح، مفصلاً فيها، مبيناً استحقاق المجني عليه لها، محبذاً العفو فيما بين المسلمين، قال تعالى في سورة المائدة : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

٦- تكلم عن حد البغاة . قال تعالى في سورة الحجرات : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾ .

٧- تكلم عن حد السرقة، منكلاً بفاعلها، ليحفظ بذلك حقوق الناس، قال تعالى في سورة المائدة : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

وهكذا كان حديث القرآن الكريم عن الحدود، والعقوبات، من خلال تصوير فداحة الجرائم، وتبشيع فعلها، والتشنيع على فاعلها، والتنكيل به، ليضمن حقوق العباد وسلامتهم، في ظل منهج كانت صرامته وحزمه عين الوقاية التي تضبط حياة الناس، كل ذلك ليحذر، وينذر، ويخوف العباد، من الوقوع فيها، وبالتالي يتحقق منهجه الوقائي بوجه تام .

المطلب الثالث : الحديث عن الأخلاق :

في هذا المجال تناول حديث القرآن الكريم جانب الأخلاق[1]؛ والآداب، وعموم تصرفات المسلم، كالحديث عن حال الكفار، والمشركين، والمنافقين، وأهل الكتاب، وعن عموم السلوكيات الحسنة الحميدة، الداعية للفضيلة، كالصدق، والأمانة، والوفاء بالعهد، والرحمة، والعدل،

والسلوكيات السيئة الذميمة، المفضية للرذيلة، كالكذب، والخيانة، والظلم، والعداون، والنفاق، كما تكلم عن مسألة قوة الإيمان، وضعفه، وعن أجور بعض الأعمال، وعن منازل الجنة، وأسمائها، ودركات النار، وأسمائها، وما إلى ذلك .

كما أظهر حديث القرآن الكريم هنا قيمة تلك الفضائل والخصال الحميدة، وبشع الرذائل[2]، وبيّن سوء عاقبتها، فعمق جانب الإيمانيات في القلوب، ومكنون النفوس، والدعوة للتمسك بالفضائل، ونبذ الرذائل والنقائص،

من خلال رسائل توجيهية عامة، بعرض الأخلاق الحميدة، في معرض المدح، داعياً إليها، محبذاً إياها، وعرض الأخلاق الذميمة الرذيلة، في معرض الذم، محذراً منها، وموبخاً عليها . فمثلاً :

١- تحدث عن الأخلاق الحسنة الفاضلة، كمبدأ الصدق، داعياً إليه ليقي الجميع من الكذب، وعواقبه، وتبعاته، قال تعالى في سورة التوبة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ .

---

[1] الأخلاق : تعاملات المرء مع غيره بما يوصف بالحسن أو القبح .

[2] الرذيلة : التصرفات الذميمة، وهي عكس الفضيلة .

٢- تناول الحديث الواجبات الحتمية، والحقوق الشرعية، كبر الوالدين، آمراً بذلك، ليقيم بين الناس العلاقات الصحيحة، ويحذر من الممارسات الخاطئة، كقوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ .

٣- تكلم عن جملة من الأخلاق الرذيلة، كالغيبة، والبهتان، واللمز، والهمز، والتعيير، والتجسس، وسوء الظن في عباد الله سبحانه، كل ذلك صيانة للناس في دنياهم، قال تعالى في سورة الحجرات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾ .

٤- عظم شأن الرحم وصلة الأرحام، وأوجب القيام بها، محذراً من عاقبة القطيعة، وشؤمها، ووبالها، قال تعالى في سورة محمد : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

٥- وصّى بحقوق ذوي القرابات، وحقوق الجوار، والصاحب، ليربط المجتمع فيما بين أفراده، ويقيهم من عاقبة التصرفات الخاطئة، قال سبحانه وتعالى في سورة النساء : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ .

٦- تحدث عن الصلح بين الزوجين؛ حال الخلاف، وأوضح كيفية ذلك ليقضي على الخلافات الزوجية تماماً متى حصلت، قال تعالى في سورة النساء : ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ ﴿١٢٨﴾ ﴾ .

٧- عظم شأن الأمانة، وقاية للناس من الغدر، والخيانة، وتحفيزاً لحفظ الأمانات فيما بينهم، قال تعالى في سورة النساء : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ .

٨- حذر من الفتن، وعواقبها الوخيمة على المجتمع، ليبعد عنها الجميع، قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴿١٩١﴾ ﴾ . وقال سبحانه في الآية الأخرى : ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴿٢١٧﴾ ﴾ .

٩- حذر من الظلم، وسوء عاقبته، محذراً من انتشاره فيما بين المجتمع، قال تعالى في سورة الفرقان : ﴿ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ .

١٠- أفاض في الحديث عن رسول الله ﷺ وعن بعض أحواله، وأحوال المؤمنين معه، داعياً للاقتداء بهديه، والالتزام بسنته، منها قوله تعالى في سورة الحجرات : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ .

١١- بيّن فضل أمهات المؤمنين، رضوان الله تعالى عنهن، وبعض أحوالهن، ومواقفهن، وصفاتهن، ليحبب لمعاشر النساء الاقتداء بهن، وحثهن على ذلك، وهذا

في حد ذاته وقاية للمرأة من التصرفات المحرمة والممارسات غير اللائقة منها قوله تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ .

وبهذا تبين أن حديث القرآن الكريم عن الإيمانيات والأخلاقيات، أصّل فيه لكل فضيلة، وخلق حسن، وأمر بذلك، ودعا إليه، ومدح أهله، ونبذ كل رذيلة، وخلق ذميم سيء، وحذر منها، وقبح فعلها، وشنع على فاعلها، في منهج وقائي تام . والمحصلة هي أن القرآن الكريم حين تحدث عن الدين تكلم عن كل جزئياته، واستغرق كل تفصيلياته، وبيّن ما يجب، وما يتوجب على الإنسان فعله، ولم يغفل عن أدنى جزئية، ذات أثر إلا وقد بينها، ولم يتركها لتعصف بعقل المسلم، في دوامة الوساوس، والترددات، والشكوك، والحيرة، والأوهام، وكان منهجه ذاك معتمداً على زاويتين :

- الأولى . بيان المنهج الحق فيها، وثمرة وآثار ذلك الطيبة .
- الثانية . تحذيره من عاقبة الانحراف عنها، وسوء ذلك .

وبهذا وضع الدين في منهج محكم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد؛ متى حققه المسلم وصان دينه؛ أفلح ونجا . حين جاء بكل مفرداته التي يحتاجها المسلم في حياته، بأكثر مما يتصور العقل البشري القاصر أو يطلب؛ ليوقفه على مدى عمق هذه التعاليم، وغاية نفعيتها في حياته، بأكثر مما كان يعتقد، ويفكر، ويدور بخلده .

مفصلاً موضوعاتها على الوجه الذي يظهر غايات المقاصد، بكل وضوح . كل ذلك ليقيم المسلم شريعة ربه سبحانه كما أمر ربنا جل في علاه .

المبحث الثالث : حفظ النفس :

المطلب الأول : الجانب الجسدي (المادي) .

المطلب الثاني : الجانب الروحي (المعنوي) .

المبحث الثالث : حفظ النفس :

كل الشرائع السماوية الربانية؛ كان من أولويات تشريعاتها، حفظ النفس[1]، وسلامتها . وذلك يتم بامتثال أوامر الله تعالى، واجتناب نواهييه .

وفي شرع ديننا الحنيف المتمثل في المصدر التشريعي الأول، وهو القرآن الكريم، ورد فيه جملة من الآيات التي جاءت لترسي ذلك، ولتبينه، وتضع له منهجاً قويماً للغاية .

لذا أخذ حديث القرآن الكريم عن النفس أبعاداً كثيرة، من أولوياته التي جاء بها، الوقاية التامة بكل ما يحقق حفظ النفس البشرية، ويضمن سلامتها، وفق منهج شرعي أصيل، وفي محكم التنزيل قوله تعالى في سورة يونس : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٣﴾﴾ .

وحديث القرآن الكريم الذي تناول النفس قد راعى جانبين اثنين، هما : أنها نفس محكومة باحتياجات، ورغبات، ونزوات مادية، تريحها متى تحصّلت عليه، فلم يتجاهل ذلك، بل رشّده، ووجّهه ووضع له منهجاً حقاً، يحقق لها كل ما تصبو إليه، وتطمح فيه، من غير أن تؤذي ذاتها، أو تضر بغيرها، أو تتعدى على ما ليس لها، في حمأة طلب الحريات المفرطة، وثورة السعي خلف تأمين الضرورات، وتحصيل الحاجيات، بأية طريقة كانت . وراعى أيضاً أنها نفس طموحة ذات أشواق وتطلعات، فحد لذلك حدوداً لها، بحيث تقف كل تلك التطلعات عند حد المعقول المقبول، فلا ضرر ولا ضرار .

[1] النفس : جوهر لطيف يدل على الروح والحياة التي في الإنسان .

وبهذا ضمن حديث القرآن الكريم للنفس البشرية الحماية من شرورها، وغدراتها، وغوائلها، وبوائقها، وطغيانها، وانحرافاتها، قبل أن يحمي الآخرين منها، فحقق بهذه الطريقة حمايتها من الآخرين، وحماية الآخرين منها، لأنه لم يقبل الخطأ منها، ولم يرضه عليها .

وقد شملت آيات القرآن الكريم كل الجوانب التي تختص بذلك، ليقف على كل مفاصل الحديث عنها، فيعالج داءاتها، ومشكلاتها، وخلجاتها، ومن ثم ليضع المنهج القويم، لكيفية معالجة ذلك، بما يحقق حفظها، وسلامتها[1]. متناولاً الحديث محورين اثنين . سأتناولها خلال مطلبين، من حيث كونهما منهجاً وقائياً :

المطلب الأول : الجانب الجسدي (المادي) .

المطلب الثاني : الجانب الروحي (المعنوي) .

[1] تعليق : يلاحظ أن مجمل كتب علم النفس حين تناولت دراسة النفس البشرية تناولتها من ناحيتين اثنتين :

– الأولى : من الناحية المادية من حيث التكوين، وهو ما يعرف بعلم النفس التكويني .

– الثانية : من الناحية المعنوية وهي عموم كتب علم النفس العام بكافة مجالاته وفروعه، وكتب الشخصية، وكتب السلوك النفسي، وما إلى ذلك من كتب ومؤلفات .

المطلب الأول : الجانب الجسدي (المادي) :

في هذا الجانب تناول حديث القرآن الكريم الجانب المادي للنفس، من خلال إيراد جملة من الآيات التي اهتمت بذلك، مبيناً كيفية المحافظة عليها بوجه عام؛ لأن قوام الدين لا يكون إلا بقوام البدن، وقوام البدن لا يتحقق إلا وفق منهج حق، يضمن للإنسان شيئين، قوت يقيم به صلبه، ومنهج حق يحفظه من الأذى، والعطب، والسوء، والضرر :

١- ففي البدء ساوى بين النفوس، من حيث مادة الوجود، وحقيقة التكوين، بغض النظر عن التفاضل في الأقدار، والمقامات، والأعمال، فقال تعالى في سورة المائدة : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

٢- عظم شأن النفس والمحافظة عليها، وحرم الاعتداء عليها، أو الإضرار بها، بأي وجه كان، وتجاوز ذلك يعني الفساد العظيم، قال تعالى في سورة المائدة : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣٢﴾ ﴾ .

٣- بيّن تحريم التعدي عليها بالقتل، إلا بالحق المبيح لذلك، حين أمر أمراً صريحاً بحفظ النفس، وعدم التعدي عليها بإزهاق روحها، في آيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

٤- أظهر أمر الله سبحانه وتعالى بحفظ مكانة النفس، التي قتلت بالخطأ، صيانة لها، ولحقها المهدر من غير قصد، ووقاية للقاتل من التعدي عليه بالقتل، لعدم قصده ذلك الفعل، قال جلت عظمته في سورة النساء : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن

يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

٥- أورد وجوب سلامة النفس، وعدم التعدي عليها بأدنى جناية[1]، تلحق بها الضرر، في آيات كثيرة، من جملتها آيات الحدود، منها قوله سبحانه في سورة المائدة : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَـٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

٦- بيّن نهي الله تعالى عن التعدي على الولد بالقتل، الذي يعد قطعة من النفس، مهما كان السبب الدافع لذلك؛ لأن الإنسان لا يملك أن يزهق روحاً، وإن كانت روح ولده، قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴿١٥١﴾ ﴾ .

[1] الجناية : فعل محظور ينشأ عنه ضرر النفس أو ضرر الآخرين .

٧- تحدث عن تشريع الله سبحانه للنفس كل ما يحفظ قوامها المادي، بأن شرع لها القوت الطيب، ومنع عنها الخبيث المضر، فقال تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ .

٨- تكلم عن وقاية الإنسان من الأكل الحرام، في ربط بين الماديات، والمعنويات، مما هو حلال الإباحة، ومما هو حلال الكسب، قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا ﴿١٦٨﴾ ﴾ .

٩- وضّح تحريم الله عز وجل للانتحار[1]؛ لأن فيه اعتراضاً على قدر الله سبحانه، قال تعالى في سورة النساء : ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ .

١٠- أورد تحريم كل مضر مفسد، من عموم المأكول والمشروب، مما لا تنتفع به، بل قد يضرها، ويفسدها، في آيات كثيرة منها قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ ﴿٣﴾ ﴾ .

١١- بيّن أن لكل نفس أجلاً لا تتعداه، زماناً، ومكاناً، كل إنسان صائر إليه، قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ .

---

[1] الانتحار : قتل النفس بأداة ما، أو بطريقة معينة .

١٢- حذرها من مغبة الإفراط في الأكل، حتى لا يضر الإنسان ببدنه، ومن ثم بعقله، وجسده، بوجه عام؛ لأن القصد من الأكل حفظ مادة الحياة؛ بقوام الصلب، قال تعالى في سورة الاعراف : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

١٣- ذكر أن لكل نفس مرافقين حفظة، من الملائكة الكرام عليهم السلام، فلا يجري عليها من الأقدار، والمصائب، إلا ما أراد الله تعالى، قال سبحانه في سورة الرعد : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴿١١﴾ ﴾ .

١٤- طمأن الإنسان بأن لكل نفس رزقاً؛ لا يتعداها ولا تتعداه، ومكاناً تموت فيه، لا يعلمه إلا الله جل في علاه، كى لا يحمل الإنسان همّ ذلك الأمر، قال تعالى في سورة لقمان : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

١٥- أوضح أن النساء شقائق الرجال[1]، في هذه الدنيا، وأنه عز وجل جعل لكل بني جنس احتياجاً للآخر، وأنه سبحانه جعل بين الزوجين المودة والرحمة، لينعم الإنسان في ظل حياة زوجية سعيدة، وبهذا تتكامل الحياة بهما مجتمعين، ومنهما يكون النسل وحفظ النوع، لا غنى لأحدهما عن الآخر . قال جل في علاه في سورة

[1] وفي الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ : (**النساء شقائق الرجال**)[رواه أبو داود، (٢٣٦) . الترمذي، (١١٣) . وصححه الألباني من سنن أبي داود] . وشقائق أي مثلهن، والمعنى يكمّل كل واحد منهما الآخر .

الروم : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

١٦- بيّن أن الولد قطعة من النفس، وفلذة من الكبد، تقر به الأعين، يكون نتيجة شراكة زوجية بين أبوين متحابين، قال تعالى في سورة النحل : ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ﴿٧٢﴾ ﴾ .

والمحصلة هي أن حديث القرآن الكريم تناول هنا، الجانب المادي للنفس البشرية، وذكر فيه أهم متعلقاته، بما يحقق لها المنهج الوقائي على الوجه المطلوب، حتى لا ينشغل الإنسان بما وراء ذلك، مما يراه أنه من أولويات حياته المادية، وحسبه ما جاء فيه من توجيهات وقائية نافعة .

وهكذا اتضح أن عطاء القرآن الكريم لا يزال مستغرقاً مستقبل الأيام، بحسب مستجدات الزمان، ومعطيات الأحداث .

المطلب الثاني : الجانب الروحي (المعنوي) :

اهتم حديث القرآن الكريم هنا بالنفس البشرية من الناحية المعنوية، في قالب وقائي تام، عني بكل ما يخصها، لتعرف هدفها في الحياة . والوقاية المعنوية للنفس البشرية في كتاب الله تعالى، أخذت مجالاً واسعاً فيه، ليعرف الإنسان مدى عناية الله تعالى بنفسه، فللنفس علل وداءات كثيرة لا يعلمها إلا الذي خلقها وصرفها، وهو مطلع على مكنون جوهرها، وهو الله جل في علاه، الذي يعلم ما يقومها وما يصلحها ويصلح شأنها، فبيّن أولاً :

١- مدى إرادة الله سبحانه في هداية النفس البشرية، حين ألهمها سبيل الرشاد، وحذرها من كل سبل الغي، والردى، فتنجو وتفلح قال تعالى في سورة الشمس : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ ﴾ .

٢- أمر بوجوب حفظ النفس من كل ما يوبقها، من ذنوب، وآثام، وخطايا، ومنكرات، ومفسدات، وحذر من سوء عاقبة الانحراف عن المنهج الحق بقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ .

لذا أمر سبحانه بوجوب المسارعة بالإقلاع عن الذنب متى حصل من المسلم بقوله تعالى في سورة النساء : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ .

٣- ذكر حالات النفس الثلاث، مبيناً للإنسان أحواله مع نفسه، وأحوال نفسه مع منهج ربه سبحانه، ومدى قبول ذلك، من الاعراض عنه، فقال تعالى في سورة يوسف : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

. وقال سبحانه في سورة القيامة : ﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾ . وقال عز وجل في سورة الفجر : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ﴾ . فتبين أن للنفس ثلاث حالات، فتارة تكون مطمئنة لا تأمر صاحبها إلا بخير، وتارة تكون لوامة تلوم المرء على الخطأ، وتارة تكون أمارة بالسوء، متى استولت عليها الشهوات والشبهات .

٤- خوّف من سوء عاقبة ما اقترفت النفس، حال طغيان الشهوات والشبهات عليها، فيه إشارة إلى ضعف النفس أمام المؤثرات، والمغريات، قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٢٥ ﴾ .

٥- حذر من بواعث النفس، وشرورها، وشهواتها، ونزواتها، بوجه عام، فيه إشارة على نقصها، ومدى احتياجها لمنهج وقائي يعصمها، ويحميها، من هواجسها، ونزوعاتها، فقال تعالى في سورة يوسف : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥٣ ﴾ .

٦- تكلم عن مسألة تزكية الإنسان نفسه، وأن ذلك أمر هو بيد الله تعالى، الذي يعلم خفايا النفوس، ومكنون الصدور، فيه إشارة إلى الإعجاب بالنفس، وتشوفها على الآخرين، رغم ضعفها ونقصها، والمنهج الرباني هو الذي يضمن لها السلامة من الجنوح، والانحراف، ويحقق لها التزكية الحقيقية، قال سبحانه في سورة النجم : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢ ﴾ .

٧- تحدث عن الوساوس والغوائل، محذراً من انسياق النفس خلف ركب ذلك، بتتبع خطوات الشيطان وشَرَكه، فيه إشارة إلى حديث النفس للنفس، ونفس بلا منهج تتوه في دروب الضلال، ومسالك الردى، قال له تعالى في سورة ق : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ ﴾ .

٨- بيّن أن النفس صاحبة هوى يطغي صاحبه، ويجعله يجنح عن الحق كثيراً، فحذر من ذلك، فيه إشارة إلى مسألة ميول النفس لكل ملتذ ومرغوب، فقال تعالى في سورة النازعات : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

٩- أوضح أن شرع الله تعالى هو خير ما يحفظ النفس البشرية، من سوآتها، وغوائلها، وغدراتها، وجنوحاتها، فيه إشارة إلى جنوح النفس المتكرر عن الحقائق، قال تعالى في سورة الطلاق : ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴿١﴾ ﴾ .

١٠- أوضح أن نفس الإنسان هي أبصر بفعالها، وأدرى بتصرفاتها، بحسب اختياره لعمله، قال تعالى في سورة الإنسان : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ .

١١- بيّن أن كل نفس مرتهنة يوم القيامة بما ستقدم من عمل في دنياها، وفي ذلك دعوة للمبادرة بالعمل الصالح، وتجنب ما سواه، من مظالم، وتعديات، وفساد، ومنكرات، قال تعالى في سورة المدثر : ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

١٢- كشف كيف أن النفس تروّض ذاتها حال المعصية لتطاوع هواها وتجاريه، فيه إشارة إلى دوافع النفس، ودواعيها، ونزغاتها ونزوعها الدائم، والصراع المستمر بداخلها، والمنهج الوقائي إنما جاء ليحميها من ذلك، لتقف عند حدود الله تعالى

ومراده سبحانه قال جل ذكره في سورة المائدة : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

١٣- ألزم كل نفس، بأنها مسؤولة عن اتخاذ قرارتها، وأن الله تعالى يلزم كل إنسان بما في نفسه، ما لم يغير ذلك، فيه إشارة لحقيقة سلوك النفس، وطبعها، وطريقة تفكيرها، قال تعالى في سورة الرعد : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ .

١٤- ضمن للنفس البشرية الصلاح، وراحة البال، والاستكانة، والطمأنينة، وقاية لها، حين بيّن لها الصراط المستقيم، ورغبها فيه وحببها إياه، قال تعالى في سورة محمد : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ .

١٥- أظهر مدى مجاهدة النفس، السوية المستقيمة، وصراعها الدائم، لما بداخلها، من أفكار ووساوس، ومغالبة بين قوى الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، وذلك أمر طبعي في عالم البشر، فيه إشارة إلى صوت الحق، المطمور في قرارتها، حال تكوينها الخلقي، قال تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ .

١٦- حمى النفس من عصف الحيرة، والتردد، وعناء الإرهاق، والشقاء، حين وضع لها منهجاً وقائياً، يعصمها من كل ما قد يضر بها، فأراحها من عناء البحث عن منهج يوضح لها ذلك، قال سبحانه في سورة الأنعام : ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ

ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ .

١٧- ذكر أن النفس قد تكون ذات جحود واستنكاف، رغم يقينها بالشيء الحق، متى امتلأت بالشهوات والشبهات، التي تحجب عنها أنوار الهدى الربانية، فيه إشارة لمكامن الشر والنقص في النفس، كلما ابتعدت عن طريق الحق وحادت عنه، وجانبت الصواب قال تعالى في سورة النمل : ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

١٨- وضح أن الشخصية شيء[1]؛ والنفس شيء آخر، وهذا في حد ذاته وقاية للإنسان، حين يحذر من حديث النفس، الذي قد يقوده إلى الهلاك والبوار والضياع، قال جلت عظمته في سورة المائدة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴿٩٧﴾ ﴾ .

وهكذا تحدث القرآن الكريم عن الجانب المعنوي للنفس البشرية، وتطرق الحديث فيه إلى كل ما يتعلق بها من موضوعات، ومتعلقات، بل ومصطلحات سبق إليها القرآن الكريم كتب علم النفس الحديث، التي تناولتها مؤلفاته وأبحاثه ومصادره ودراساته .

القرآن الكريم أمر بحفظ النفس من كل ما يضر بها مادياً أو معنوياً، وبين كل ما يؤثر عليها من قريب أو من بعيد، وأول ذلك هوى النفس وطغيانها وفجورها وبوائقها .

---

[1] الشخصية : سلوك الفرد وصفاته الذي يميزه عن غيره .

القرآن الكريم تعامل مع مكنون النفس، من خلال الحديث عن كل ما يمت لها بصلة، فتكاملت بذلك أطراف الحديث عنها، وكل ما يشعر الإنسان أنه بحاجة لمعرفته والوقوف عليه .

وبهذا حوت آيات القرآن الكريم التي تكلمت عن النفس البشرية جميع احتياجاتها، وما قد يدور بخلدها من أمور، ولم يترك القرآن الكريم شيئاً ينفعها، أو قد يضر بها، إلا وبينه ووضحه، ووضع له منهجاً حقاً تسير عليه، تكلم عن كل حالاتها، وأحوالها، بكل ما يحقق رغباتها، واحتياجاتها، ويرضي نهم تطلعاتها، في محتوىً فريد . فعالجها بذلك أيما علاج من كل وجه؛ لتكون سوية، مستقيمة، مستكينة، مطمئنة .

المبحث الرابع : حفظ العرض :

المطلب الأول : المأمورات والمباحات .

المطلب الثاني : المنهيات والعقوبات .

المبحث الرابع : حفظ العرض :

حفظ العرض من أولويات الأمور، التي جاءت كل الشرائع آمرة به؛ لأن حفظ العرض[1]، وسلامة النسل وطهارته، تبنى عليها مسألة سلامة المجتمعات، بوجه طبعي منظّم لا شبهات فيه .

وقد أرسى القرآن الكريم موضوع المنهج الوقائي للعرض؛ لأن به يكون حفظ الأنساب، فتنتظم بذلك حركة الحياة، وتستقيم .

ومسألة حفظ العرض من مهمات كل أسرة سليمة؛ لأن التربية لا تقوم إلا على نسل طاهر، ومتى فسد النسل، وتدنس العرض، تساهل الأبوان في الاهتمام بالأولاد، وحينها ينفرط عقد الأسرة، والمجتمعات من وراء ذلك . لهذا نحت الآيات منحيين :

الأول- تكلم عن كل ما يحفظ العرض سليماً، من كل ما قد يشوبه، من خلال إيراد جملة المأمورات الشرعية، والمباحات التي تبين ذلك، في منهج وقائي تام شامل لكل ما يتعلق بذلك .

الثاني- تكلم عن مخالفات ذلك المنهج الحق، وما ينتج عنه من جرائم الزنا، واللواط، ومشكلات سوء السمعة، جراء القذف، أو الشك، والريبة في نسبة الولد، أو طهارة منبته . وما يترتب على ذلك من أحكام وعقوبات وجزاءات .

كل ذلك لتحقق سلامة المجتمعات، وإقامة العلاقات الصحيحة، والروابط القوية، فيما بين أفراده، وضمان خلوها من الأمراض الأخلاقية، والوبائية، والعضوية، التي قد تمزق أواصر تلك العلاقات، والروابط وتفسدها .

---

[1] العِرض : أهل بيت الرجل الذين وجب عليه صونه وحمايته .

وعليه فسيكون الحديث في هذا المبحث من خلال محورين اثنين . سأتناولهما خلال مطلبين، من حيث كونهما منهجاً وقائياً :

المطلب الأول : المأمورات والمباحات .

المطلب الثاني : المنهيات والعقوبات .

المطلب الأول : المأمورات والمباحات :

في هذا المحور تولى حديث القرآن الكريم الجانب الوقائي، من خلال إرساء مفاهيم مهمة جداً، تحقق بالفعل حفظ العرض، بأن أباح تكوين العلاقات الاجتماعية، الصحيحة السليمة، القائمة على الإشهار، كي تحسب على المجتمع ويتحمل كل طرف فيها مسؤوليته تجاه الآخر، ونهى وحذر من كل علاقة مشبوهة، يشقى بها وبتبعاتها المجتمع .

والنسل جزء من الإنسان، وهو نتاج شراكة بنيت على أساس علاقة زوجية، فمتى بنيت تلك الشراكة على علاقة صحيحة، وطاهرة كان النسل كذلك، ومتى قامت تلك الشراكة على أساس علاقة فاسدة، تدنس النسل، وكان عبئاً على المجتمع، وثمرة منبوذة فيه، لا يقبلها أحد بوجه طبعي معتاد؛ لأنها جاءت نتيجة شراكة علاقة مشبوهة منحرفة، فكان كل طرف منهما ينبذها منه، وينفيها عنه، ولا يعترف بها أبداً، حتى لا يلحقه العار . فكان القرآن الكريم هنا هو المنهج الوقائي، الذي حمى من كل ذلك، وصان العباد منه، حين :

١- بيّن أن من صفات المؤمنين حفظ فروجهم عن الحرام؛ لأن من الأولويات الداعية لحفظ الدين؛ حفظ الفرج، قال تعالى في سورة المؤمنون : ﴿ **وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ۝٥** ﴾ .

٢- علق مسألة حفظ الدين، على مسألة حفظ النسل، حتى لا يكون أحد الزوجين طرفاً فاسداً، مؤثراً على ثمرة تلك الشراكة الطاهرة بين الزوجين مستقبلاً، حين أمر بوجوب حسن اختيار شريك الزوجية، من الناحية المادية؛ لأن سلامة الوعاء الحاضن من أولويات ضمان النسل الطاهر، كما أن القدرة على القيام بمسؤوليات النكاح من أولويات استقرار الأسرة، فقال تعالى في سورة النور :

﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ .

٣- أباح النكاح بين الخلق بالوجه الشرعي، وحض عليه لبقاء النسل، وحفظ النوع، على الوجه الصحيح، صيانة عن الفواحش، والمنكرات، والجرائم الأخلاقية، وممارسات الرذيلة، والعلاقات المحرمة، قال تعالى في سورة النساء : ﴿ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ .

٤- أوجب حسن اختيار الشريك المناسب، من الناحية المعنوية أيضاً، وفي ذلك ضمان لسلامة شريك الزوجية، الذي به تتحقق سلامة الأعراض، ومن ثم طهارة الأنسال، قال تعالى في سورة النور : ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

٥- بيّن كيفية تكوين العلاقات الصحيحة بين الزوجين، زمن الخِطبة، محذراً من سوء استغلال تلك المدة بما قد يؤثر عليها مستقبلاً، نتيجة السلوك الخاطئ، فقال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ ﴾ .

٦- تحدث عن مسألة الإنفاق بين الزوجين، صيانة لبيت الزوجية، وبياناً لحدود الإنفاق ومقداره، فالزوج مسؤول عن أسرته، يسعى عليهم بالنفقة، صيانة لأهل بيته وحفاظاً لفراشه من الدنس، وعصمة لأهله من الابتذال، قال تعالى في سورة الطلاق : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾ .

٧- أباح الطلاق حال سوء العشرة، مبيناً كل أحكامه؛ لأن الطلاق يعني فكاً لرابطة الزواج المتعسر، كخطوة قد تريح الزوجين، من علاقة محسوبة عليهما، لكنها لم تحقق الانسجام المطلوب بينهما، ولا حتى بحده الأدنى، قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴿٢٣١﴾ ﴾ .

٨- تكلم عن المحرمات نكاحهن بالتفصيل، حماية لهن، وتنظيماً لحياة الأفراد في مجتمع يعج بالنساء، قال تعالى في سورة النساء : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ .

٩- حفظ الأعراض، حين حذر من الاقتراب من كل ما قد يفضي إلى فساد، ورذيلة، من مقدمات، وسلوكيات، قد تؤدي إلى هتك الأعراض، فقال تعالى في سورة النور : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

١٠- أمر بالعناية بالأولاد منذ الصغر، من الناحية المادية، فكفل لهم كل الحقوق، من نفقة، ورضاع، وفطام، ورعاية، وعناية، وما بعد ذلك، وهذا في حقيقته وقاية للمسلم، وضماناً لسلامة العرض، ومنبت الولد قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾ .

١١- اعتنى بمسألة تربية الأولاد، من الناحية المعنوية، وحسن رعايتهم، والقيام على مصالحهم، وهذا في حد ذاته حماية للعرض؛ لأن فساد التربية الأسرية مدعاة لممارسات محرمة، وعرضة للوقوع في الرذيلة، وفعل المنكرات، الأمر الذي قد يفسد الأعراض مستقبلاً، قال تعالى في سورة التحريم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴿٦﴾ ﴾ .

١٢- حذر من الافتتان بالأولاد، لدرجة الدلال المفرط، والتساهل معهم، الأمر الذي قد يفسد تربيتهم ويجعلها وبالاً على الأبوين، قال تعالى في سورة التغابن : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ ﴾ .

١٣- حرم قتل الأولاد، خشية الفقر والإملاق[1]، وأمر بالإنفاق على قدر الوسع، وقد ضمن سبحانه رزق الأولاد، وطمأن الآباء عليه، وفي ذلك صيانة لأهل البيت من الضياع والامتهان . قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ﴿٣١﴾ ﴾ .

١٤- بيّن أن الزوجة والولد قد يكونان أعداء للمسلم؛ فليتنبه لذلك، بأن يحوطهم برعايته، وعنايته المستمرة، والمتابعة الحثيثة، لضمان صلاحهم قال سبحانه في سورة التغابن : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ ﴾ .

١٥- نبّه من سوء عاقبة إنشغال المسلم عن ربه سبحانه، وذكره جل في علاه بالولد، فيه إشارة إلى أن الولد يجب أن يكون معيناً لأبيه على طاعة ربه سبحانه؛ وذلك لا يكون، ولا يتحقق إلا بحسن الرعاية، والعناية، والاهتمام به، قبل مولده، قال تعالى في سورة المنافقون : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

---

[1] الإملاق : الفقر، ومنه شدة الجوع .

١٦- كفل للأولاد نصيبهم من الإرث كاملاً، وبين ذلك حسب تقسيمات آيات المواريث، حماية لهم مما قد يكون من اختلاف، وحفاظاً على حقوقهم، وحماية للأعراض من الوقوع في مشكلات قد تجر فساداً عظيماً، قال تعالى في سورة النساء : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ ﴿١١﴾ ﴾ .

١٧- ضمن للأيتام حفظ حقوقهم، حتى لا يتسلط عليهم أحد قد يفسد حياتهم، فربما ضاع اليتيم، ووقع في حبائل الشيطان ووحل الرذائل حين لا يجد قائماً عليه، قال جلت عظمته في سورة البقرة : ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡيَتَٰمَىۖ قُلۡ إِصۡلَاحٞ لَّهُمۡ خَيۡرٞ ﴿٢٢٠﴾ ﴾ .

١٨- اهتم بمسألة مصير الأولاد، صغاراً في سن الرضاع؛ ولا سيما حال الفراق، لأن ضمان مصيرهم مهم في قضية استقرار الأسرة، قال تعالى في سورة الطلاق : ﴿ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۖ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ .

١٩- حدد مسألة قوامة الرجل في بيته، لضمان استقرار الحياة الزوجية، بوجه طبعي، بين شريكين متفاهمين، متعاونين، يتبع أحدهما الآخر، بلا غضاضة، ولا انتقاص من قدره، في تقدير رباني حكيم، وهذا في حد ذاته من أقوى أسباب ضمان سلامة الأعراض، حين يكون للبيت قيّم، يحفظه ويسعى عليه، قال تعالى في سورة النساء : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

وهكذا تبين أن حديث القرآن الكريم قد اهتم بمسألة سلامة الأعراض، وطهارة الأنسال، وتكوين علاقات صحيحة بين البشر، تقوم على أساس إشاعة قيم الفضيلة، والبعد عن الرذيلة، حين أباح كل ما يحفظ العرض، ويضبط تلك العلاقات، في المجتمع بوجه عام .

وبذلك يكون قد ضمن استقرار الأسر، وحماها من الشتات، في كل المراحل العمرية .

المطلب الثاني : المنهيات والعقوبات :

في هذا المحور ركز حديث القرآن الكريم على جانب المخالفات، التي تضر بمسألة حفظ الأعراض، من خلال تعميق قيم الفضيلة، والعفة، والطهر، والنقاء، ومن خلال تبشيع الرذيلة، والفاحشة، وما يقتضي ذلك تماماً؛ لأن الرذيلة والفاحشة متى حصلت؛ فقد حصل الشقاء، في المجتمع بوجه عام، والتي تعد من أكبر معاول الهدم والشتات والضياع .

وصيانة العرض من سلامة الدين، إذ لا يمكن لإنسان أن يقيم دينه، وهو فاسد العرض، غير مقيم له؛ لأن دواعي النفس ونزوعها يجعل الإنسان يتساهل في أمر دينه، متى تساهل في أمر عرضه، والمنهج الوقائي ملم بذلك تماماً، فجاء بكل ما يحقق سلامة الأعراض، حين :

١- أصّل لمسألة سلامة الأعراض والأنسال، بالنهي عن عموم الرذائل، والفواحش، من حيث أصل التشريع، لما في ذلك من أهمية وأثر لا يستهان بهما . قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

٢- تحدث عن الناحية المعنوية بالنهي عن الفساد؛ من حيث العموم؛ لأن فساد النسل، وهتك الأعراض، فساد عظيم في الأرض، قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ .

٣- خوف غاية التخويف من الوقوع في جريمة الزنا، بالبعد عن الاقتراب من كل ما يفضي إلى ذلك من دواع؛ كقوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ .

٤- حذر من مسألة التساهل في إقامة حدود الزنا، محافظاً بذلك على بقاء طهارة النسل، من أن تمسه أدنى شائبة قد تعتريه، قال تعالى في سورة النور : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ .

٥- عصم الأعراض من أدنى إفساد، كقذف الناس في أعراضهم؛ لأن ذلك قد يوهن النفس، فيشكك الإنسان في الولد مستقبلاً، مما يورث الذل والخنوع، قال تعالى في سورة النور : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ . الآية هنا تضمنت حكماً مادياً وهو الجلد .

٦- خوف غاية التخويف من الوقوع في جريمة اللواط، لما في ذلك من آثار قبيحة بشعة، تنفر منها الطباع، ولما فيها أيضاً من وضع شهوات في غير محلها المألوف، مما يسبب تفشي أخلاق الرذيلة والرضا بها، وانتشار الأوبئة والأمراض والقذارات . قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ .

٧- حذر من عواقب هتك الأعراض، ونشر الرذيلة، وانتشار الفواحش في المجتمع، ومن كل أسباب ضياع الدين، بما دعا إليه من فضائل، وأخلاق، وعلاقات طاهرة صحيحة، قال تعالى في سورة النور : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

٨- حرم الخوض في الأعراض، بما يفسدها، لما في ذلك من أدواء اجتماعية، وأمراض نفسية، تؤثر على العلاقات الصحيحة، قد تصيب الناس بالتساهل في أمور أعراضهم؛ ودينهم، قال تعالى في سورة الحجرات : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ .

٩- شرع حد القذف في حق كل من قذف معصوماً، من غير بينه، حفاظاً على أعراض الناس وضماناً لسلامتها، وعصمة لها من الامتهان، قال تعالى في سورة النور : ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ .

وهكذا اهتم القرآن الكريم قد اهتم بمسألة سلامة الأعراض، بالدقة المتناهية؛ لأن الإنسان متى ضمن سلامة عرضه، حفزه ذلك للاهتمام بأهل بيته، رعاية، وحماية، وصيانة لهم، وقام بواجبه نحوهم، نصحاً، وتوجيهاً، وإرشاداً، وما إلى ذلك، من حفاظ على العلاقات الزوجية فيما بعد مرحلة الزواج، ولا سيما حين تنمو الأسرة وتزداد بالأولاد، فأوجب جملة من الوقائيات، التي من خلالها تنتظم الحياة المعيشية، بوجه سليم في نسيج اجتماعي صحيح، خالياً من الوبائيات الأخلاقية، ليضمن سلامته، وأمّن جانبه، وحقق حفظه، مادياً ومعنوياً . وبهذا يكون قد وقى وعالج في نفس الوقت، فكان خير حافظة؛ تحفظ العرض، وتضمن سلامته، بوجه تام صيّن أمين . وحفظ الأعراض تقوم عليه أمور كثيرة، لذا راعى القرآن الكريم ذلك تماماً، حين تناوله بكل عناية فائقة، واهتمام بالغ؛ لأن فساده يعني فساداً متعدداً، متعدياً، له تبعات وعواقب وخيمة على المجتمع بأسره .

المبحث الخامس : حفظ المال :

المطلب الأول : كيفية جمعه وكسبه .

المطلب الثاني : كيفية إنفاقه .

المطلب الثالث : التحذير من الافتتان به .

المطلب الرابع : العلاقات المالية بين الناس .

المبحث الخامس : حفظ المال :

يعد المال[1]، عصب الحياة الدنيا، والسيولة التي بها تتم حركة الناس في معايشهم عامةً؛ لأن به قضاء الحوائج .

لذا كان ولا بد أن يتناول حديث القرآن الكريم المال من جميع جوانبه، والله عز وجل يريد أن يربط أفراد المجتمع الواحد، بنظام مالي سليم، مبناه قائم على تحقيق الفائدة للفرد، وعلى تحقيق مبدأ التكافل الاجتماعي، لتظل حاجة كل واحد عند الآخر، في نسق حياتي تكاملي لا بد منه، فتستقيم بذلك الحركة المالية في معيشة سليمة متوازنة .

لذا وضع له ميزاناً وقائياً لا يحيد عنه، حين بيّن مدى أهمية المال في حياة المسلم، فتعامل معه بما يحقق جملة المصالح، والمنافع للجميع، في تعاملات صحيحة لا استغلال فيها، ولا استغفال، ومنع في الوقت نفسه كافة المفاسد، والمضار المالية، التي قد تنشأ نتيجة سوء التعامل به، أو في توظيفه توظيفاً غير صحيح .

وتكمن أهمية المال في كونه عصب الحياة، وبه تقضى الحاجيات، وهذا يعني أن الفساد المالي، يعني فساداً كبيراً في عموم التعاملات الأخرى المترتبة عليها، سواء المالية، أو غير المالية أيضاً، وبالتالي الفساد في كافة مرافق الحياة الدنيا .

حديث القرآن الكريم تناول كافة أشكال المال، سواء كان مالاً متمولاً كالنقود، أم صامتاً كالنقدين، أم مملوكاً، أم منقولاً متداولاً كالبيع والشراء بكافة أنواعه، كالأنعام، والدواب، والزروع، كما تحدث عن سائر أنواع المعاملات وصورها، التي تتم به من بيع، وشراء، ورهون، ومداينات، وعقود، ومكاتبات،

[1] المال : كل ما يملكه المرء من عَرَض أو كان عقاراً أو نقداً أو أرضاً أو ماشيةً أو ما سوى ذلك .

وعطايا، وهبات، وكنوز، ومدخرات، وموروثات . وبهذا يكون قد ذكر جميع أوجه المال، وغطى كافة التعاملات التجارية والمالية فيما بين الناس .

ومجمل الآيات التي تكلمت عن المال دارت حول أربعة محاور، سأتناولها خلال أربعة مطالب، من حيث كونها منهجاً وقائياً :

المطلب الأول : كيفية جمعه وكسبه .

المطلب الثاني : كيفية إنفاقه .

المطلب الثالث : التحذير من الافتتان به .

المطلب الرابع : العلاقات المالية بين الناس .

المطلب الأول : كيفية جمعه وكسبه :

اهتم القرآن الكريم بمسألة جمع المال من حله، ليكون عوناً للمسلم على طاعة الله تعالى، وليجد ثمرة البركة فيه . فشرع له كل طريق مباح، ينمو المال به بوجه صحيح، لا استغلال فيه وفق تعاملات مالية لا مضارة فيها، وحذر من كل تعامل، قد ينمو به المال بطريق الأنانية، والتحايل، والانتهازية، والاستغلال، والاستغفال للآخرين؛ لأن القصد من المال استعماله في النافع المفيد :

١- فقد أباح جمع المال من كل مصدر حلال، لا شائبة فيه، ضمن تعاملات شرعية مباحة، تحقق به منفعة الجميع، فقال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ ﴾ .

٢- نهى عن كل علاقات مالية مشبوهة، كالتحايل على الناس، وأكل أموالهم بالباطل، واستغفال نواياهم الحسنة، واستغلال حاجتهم للمال، كل ذلك ممنوع منهي عنه، ليس فيه النفع الصحيح . قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ .

٣- حرم التعدي على أموال الناس، وأخذها من غير وجه حق، أو كسب حلال مشروع كالسرقة؛ ضماناً لحقوق الناس، فقال تعالى في سورة المائدة : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

٤- أظهر وخامة ظلم الضعيف، وأخذ ماله، ولا سيما أكل مال اليتيم بالباطل، وأمر بالإحسان لمن أخذه، بقصد حسن ليثمره، حماية لأموال القاصرين والضعفاء والمساكين، قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ ﴾ .

٦- نهى عن أكل السحت، وكل مال حرام، من غير وجه شرعي يراد به المنفعة المتبادلة، المتحققة للجميع، إذ لا مضارة لأحد أبداً . قال تعالى في سورة المائدة : ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ .

٧- حذر من بيع كل محرم، ونجس، وخبيث، لا يحقق النفع المتبادل، هذا بالإضافة لما فيها من ترويج للخبيث، والمنكر، وتسويق له، كان الأولى منعه، وحظره، سلامة للمجتمع من كل وسائل الضرر قال جلت عظمته في سورة المائدة : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ .

وهكذا تبين أن القرآن الكريم حين ذكر كيفية جمع المال، وطرق كسبه، أباح كل ما يحقق المصلحة، والمنفعة للجميع، وحرم كل تعامل خاطئ لا يقوم على ذلك الأساس، في منهج وقائي مالي مثمر تام .

المطلب الثاني : كيفية إنفاقه :

في هذا المحور تناول حديث القرآن الكريم مسألة كيفية إنفاق المال، في كل وجه شرعي حق، كوجوه الخير، والبر، والهدى، والتعاون، والرشاد، وحث على الإنفاق وحض عليه، ووبخ وخوّف من عاقبة الإمساك، والبخل، والشح؛ لأن المال مال الله سبحانه خوله للبعض، ينتقل من يد لأخرى، لتنتظم به حياة الناس في نسق تكاملي :

١- فجاء الأمر بإيتاء الزكاة المفروضة، لتحقيق مبدأ التكافل الاجتماعي، فيما بين الناس، فيؤخذ للفقير من الغني، وللضعيف من القوي، ومن الواجد للمحتاج، وقاية للقادر من آفات الشح، ووقاية للمحتاج من حرج السؤال، قال تعالى في سورة المعارج : ﴿ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥ ﴾ .

٢- حث على الصدقة، بأكثر من نصاب الزكاة المعلوم، ليغطي مدى احتياج المجتمع، من فقراء، وذوي حاجات، والصدقة هي أيضاً حق واجب في المال، غير أن مقدارها غير معلوم، كل ذلك ليستوعب المحتاجين في المجتمع، قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٧١ ﴾ .

٣- بيّن مصارف الزكاة والمحتاجين لها، حتى لا يضطرب حال الناس في معرفتهم، بحسب تقديراتهم المختلفة، فرصة لمنح المحتاج، وحجباً للمتظاهر بذلك من غير حاجة ولا فاقة، قال تعالى في سورة التوبة : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ

وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

٤- اهتم بمسألة إنفاق المال في حله، حاثاً عليه محبباً فيه؛ لأنه بالإنفاق يتواصل الناس، ويترابطون فيما بينهم، ويحنو بعضهم على بعض، وقاية للمجتمع من آفات البخل والشح، وغوائل الغل، والتطلع، والحقد على الواجد، قال تعالى في سورة التغابن : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ .

٥- حذر من عاقبة سوء استغلال المال، حال إنفاقه، في المحرمات والمنكرات، فالواجب في حفظ المال على الوجه الصحيح أمران : الأول، إمساكه عن التلف . والثاني، إنفاقه فيما يستوجب ذلك، بلا شح ولا تقتير، والحرام ليس من ذلك في شيء بكل حال، قال تعالى في سورة الأنفال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

٦- اهتم بمسألة العامل النفسي حال الإنفاق، حين معالجة النفس وتطويعها لذلك، كما لو كان يسترضي النفوس، ويستميلها للإنفاق في سبيل الله سبحانه، وقاية للنفس من بوائقها، وشرورها، وغوائلها، قال جلت قدرته في سورة الحشر : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

٧- حذر من سوء عاقبة إمساك المال، وكنزه، وعدم أداء زكاته، لأن ذلك يعني غاية التعدي على شرع الله سبحانه وتعالى، الذي أوجب الزكاة في المال، حقاً

معلوماً، وليس تفضلاً من صاحب المال على غيره، وإحساناً منه، فكل صاحب مال؛ عليه في ماله حق لله تعالى، أوجبه سبحانه للمحتاجين، قال جلت عظمته في سورة التوبة : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

٨- حث على قضية الانفاق، في كل وجوه الخير، والبر، داعياً ومشيعاً لقيم التكافل الاجتماعي؛ لأن الأصل في المال تثميره لإنفاقه لا إمساكه، والإضرار به، قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾ .

٩- راعى مسألة الإنفاق من الوسع، وعلى قدر المسلم واستطاعته، في سائر النفقات، سواء الواجبة، أو الجائزة المستحبة؛ لأن الله سبحانه لم يأمر إلا على قدر الوسع، والاستطاعة، والطاقة، مراعاةً لكل ذي مال، بحسب وِجْدِه قليلاً كان أم كثيراً، قال تعالى في سورة الطلاق : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾ .

١٠- تحدث عن مسألة عدم إفناء المال؛ لأن ضياع المال منهي عنه شرعاً، والأولى الاقتصاد في إنفاقه، بما يحقق النفع والمصلحة، وبما يؤدي الحق المعلوم المفروض فيه، فلا ضرر ولا ضرار؛ لأن المال يساعد على القيام بالمهام والمسؤوليات، وقضاء للحوائج قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَأَنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ .

١١- نهى عن التبذير، والإسراف، في المباحات؛ لأن المال إن لم ينفق في أجر يدخر، أو في مصلحة تقضى، كان إنفاقه وبالاً وخسراناً على صاحبه، لمن بذره وأسرفه في ملاهٍ، قد تقوده للحرام، وقاية للمجتمع من استعماله في الملاهي المتلفة للمال، قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ .

وهكذا اتضح أن القرآن الكريم حين تحدث عن مسألة إنفاق المال، رشّد العباد غاية الترشيد، وعلمهم أيما تعليم، ووجههم خير توجيه، ليضعوا المال حيث يرضي الله تعالى، ويظهر مبدأ التكافل الاجتماعي على الوجه المطلوب .

المطلب الثالث : التحذير من الافتتان به :

في هذا المحور ساق حديث القرآن الكريم جملة من الآيات الكريمات، ليرسي قضية التحذير من الافتتان بالمال، سواء في كيفية جمعه، أم في بيان سوء إمساكه، وكنزه، لدرجة التقتير على النفس والأهل؛ لأن الإنسان كلما كان أنانياً مغروراً بالمال، مفتوناً به، نسي حق الله تعالى منه، وضيع حقوق العباد .

والافتتان بالمال يعني الجهل بالحقيقة التي وضع لها، وإضاعة للحقوق التي تعلقت به، والقرآن الكريم ما جاء إلا ليعالج القضايا الكبرى، في الحياة الدنيا، والمال من أهمها ولا ريب . ولذلك :

١- حذر من عاقبة الاغترار به؛ لأن الإنسان متى رأى المال في يده، ظن نفسه قادراً على كل شيء، فربما استعمله فيما يغضب الله تعالى، قال سبحانه في سورة العلق : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧ ﴾ .

٢- كما حذر من مغبة حب المال لدرجة الافتتان به، فالمال وسيلة؛ وليس غاية، وكونه وسيلة يعني استعماله في المنافع . قال تعالى في سورة الفجر : ﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ ﴾ .

٣- بيّن أن المال إنما هو مجرد زينة في هذه الدنيا، يجب الحذر من الافتتان بها، والفتنة في حد ذاتها غالباً ما تكون مشغلة وملهاة عن المقصد الحقيقي من الحياة، وقاية للمسلم من الانشغال به عن مراده سبحانه، الذي وهبه إياه ليقضي مصالحه به ويقوم بواجباته، قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤ ﴾ .

٤- ذكر أن المال لن ينفع صاحبه بعد موته، ما لم يكن قد أحسن التصرف فيه وأرصده لنفسه بالإنفاق منه قبل ملاقاة ربه سبحانه، وفي ذلك دعوة للإنفاق، ووقاية للمسلم من شرور المال وسوء استغلاله، قال تعالى في سورة الحاقة : ﴿ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

٥- بيّن أن المال هو أول مفاتن الدنيا، وزينتها ومتاعها، رغم كونه خير وسيلة تقضى بها الحوائج، فيجب الحذر من المبالغة في ذلك، وقاية للمجتمع من آفات المال وسطوة تملكه، قال تعالى في سورة الكهف : ﴿ ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴿٤٦﴾ ﴾ .

وهكذا تبين أن القرآن الكريم قد اهتم بمسألة التحذير من فتنة المال، واللهث خلفه، من غير معرفة الهدف الحقيقي له، والمقصد الشرعي منه .

المطلب الرابع : التعاملات المالية بين الناس :

في هذا المحور جاء الاهتمام بمسألة التعاملات المالية، فيما بين المسلمين أولاً، ثم فيما بين المسلمين ومن سواهم ثانياً، فأرسى القرآن الكريم جملة من الوقائيات، ليعرف المسلم كيف يتصرف بماله؛ لأن المال جزء مهم في الحياة، فمن جعله هدفاً له وغاية؛ لا وسيلة وسبيلاً يتبلغ بها، فقد أساء استغلاله وأجحف في استخدامه كما ينبغي . لذا جاء حديث القرآن الكريم بالمنهج الوقائي الضابط، لتلك التعاملات . فمثلاً :

١- ذكر البيوع والمداينات، وما يتعلق بذلك من أحكام، ليضع للناس أسس التعاملات التجارية الصحيحة، محققة النفع للجميع، قال تعالى في سورة البقرة :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبُۢ بِٱلْعَدْلِۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا

تَكْتُبُوهَا ۚ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ .

٢- أورد الرهن وما يتعلق به، ليعلم الناس كيفية التعامل حال السفر والحضر، صيانة لهم من الوقوع في خصومات، أو اجتهادات قد تجر عليهم ضرراً، وتوقعهم في مشاحنات لا حصر لها، قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ ﴾ .

٣- تحدث عن الحقوق الشرعية، كالمواريث والفرائض، فحدد بذلك غايات علاقة المسلم بمن حوله حياً وميتاً، وقاية للجميع من مشاحنات محتملة، كقوله تعالى في سورة النساء : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾ .

٤- أورد تحريم الربا بكافة أوجهه وصوره، لما فيه من غش وظلم عظيمين، وأنانية وانتهازية، واستغلال لأموال الناس بغير وجه حق، واستغفال لهم، وقاية للمجتمع من آثار امتصاص الانتهازية والأنانية، كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴿٢٧٥﴾ ﴾ .

٥- أبان كيفية الخراج، والفيء، وبيّن كيفية تقسيمها، وحدد جنس المستحقين لذلك ليمنع من سواهم من التطلع لشيء منها، كقوله تعالى في سورة الحشر : ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ .

٦- تحدث عن الديات، والكفارات، ليبين حقوق الحدود فيما بين الناس، ولم يتركها مجالاً لاجتهادات شخصية قد تجر مشكلات لا تنتهي، كما في الآيات الدالة على ذلك . قال تعالى في سورة النساء : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ ﴿٩٢﴾ ﴾ .

٨- عيّن الأصناف المستحقة للزكاة، والصدقة، ليتعاون الجميع في إيصالها لهم، وقاية من التكسب فيها وبها من غير المحتاجين المستحقين لها، قال تعالى في سورة التوبة : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ

﴿ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

٩- بيّن أن نصيب الذكر ضعف الإنثى حال الميراث؛ لأنه المصدر المنفق على الأسرة، القيم على مصالحها، الساعي على شؤونها، حماية لأفرادها من الشتات والضياع . قال تعالى في سورة النساء : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴿١١﴾ ﴾ .

والمحصلة هي أن القرآن الكريم حين بين كافة التعاملات التجارية، والتصرفات المالية، الصحيحة الرشيدة، أراد أن يتعامل العباد في ظلها، لا يخرجون عن مضمون ما جاء به، ليرسي لهم المنهج الوقائي القرآني الحق، وكفى بذلك منهجاً حقاً للجميع .

وهكذا اتضح أن القرآن الكريم حين تكلم عن المال من حيث الجملة، ذكر كل ما يخصه من متعلقات، ومن كل وجه . فذكر آيات عن كيفية جمعه من حله، وآيات عن كيفية إنفاقه فيما يرضي الله تعالى، وآيات تحذر من الافتتان به، وآياته يبيّن كيفية التعاملات المالية وفق المنهج الشرعي .

وبهذا كان حديث القرآن الكريم عن عموم مفاصل المال، في إرساء لجملة من التشريعات، التي وظفت المال بالضبط، وجعلته في نصابه على الوجه الصحيح .

وبهذا كان التوجية القرآني الوقائي، خير وعاء حفظ المال، وحفظ به الحقوق، وكل ما يتعلق به، من تعاملات مترتبة عليه، فيما بين عموم البشر، وفيما بين الخلق وخالقهم العظيم سبحانه .

ولهذا أولى القرآن الكريم موضوع المال اهتماماً بالغاً، حتى لا ينشأ عن التعامل به أدنى مفسدة؛ لأنه متى حصل فهو فساد متعدد الاتجاهات، يشقى به الجميع، سواء كان ذلك بسوء إمساكه بالشح فيه، أو بالافتتان به، أو في إنفاقه في غير حل، أو المضارة به وفيه .

الفصل الثالث : أساليب القرآن الكريم في المنهج الوقائي :

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : في الدلالة اللفظية :

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : الأمر والنهي الصريحان .

المطلب الثاني : ما يدل على معنى الأمر والنهي .

المبحث الثاني : الأساليب الوعظية :

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : القصص القرآني .

المطلب الثاني : ضرب المثل .

المطلب الثالث : الاعتبار بالسنن الكونية .

المطلب الرابع : الذكر بالضد (صفات المؤمنين، وما يقابلها من صفات الكافرين) .

المبحث الأول : الدلالة اللفظية :

المطلب الأول : الأمر والنهي الصريحان .

المطلب الثاني : ما يدل على معنى الأمر والنهي .

المبحث الأول : الدلالة اللفظية :

اللغة العربية بحر لا ساحل له، وقد جاء القرآن الكريم بلغته الفصحى الجزلة، بأكثر مما يعرفه العرب، واعتادوه في حياتهم، من مفردات لغتهم وبلاغتها، وأساليب كلامهم وفصاحتها، بكلمات، ومفردات، وألفاظ، وصيغ، ما عهدوها في تلوين، وتنويع، وعرض، فصيح بليغ، فاق ما يعرفون وتجاوز ما إليه ينتهون، حين استعمل أساليب عربية بلاغية، بيانية، بديعية .

مايز بها الخطاب المعتاد، فأتى على كل ما عند العرب، من فصاحة وبلاغة، وزاد عليها وأفاض، وعلمهم المنهج الوقائي، بتلك الأساليب الخطابية البديعة، وشد انتباههم إلى ألفاظ وكلمات، من جنس ما كانوا يستعملون، لكنها بصوغه وأساليبه وسياقاته أعطت أكثر مما يعرفون، فوقاهم في حاضرهم بحسب فهمهم وإدراكهم لمراداته في حينه، ووقاهم في مستقبلهم بما في تلك الكلمات والألفاظ من مدلولات ومضامين، باقية ببقاء الدين، كإعجاز لغوي لفظي، لا تقف عطاءاته عند حد الزمان، بل إنها لا تزال تعطي كثيراً .

وقد استعمل القرآن الكريم ذلك العرض البليغ، الرائع، الشائق، المعجز، من جميع نواحيه البيانية، والبلاغية، واللفظية، واللغوية، والتشريعية، والعلمية، استعمل ذلك في قوالب لغوية صغيرة، هي الآيات، اتصفت بدقة النظم، والإفهام المتقن، وإرضائه العقل والعاطفة، وجودة السبك وإحكام السرد، وتعدد الأساليب واتحاد المعنى، والجمع بين الإجمال والبيان، وإيجاز اللفظ مع وفاء المعنى، وتصوير المعاني . وظف خلالها كل أغراضه، وأهدافه، ومقاصده، التي جاء بها ولها .

والبلاغة القرآنية بأساليبها فائقة الحد، بالغة الحسن، حاوية المقاصد، لا يرقى إلى حسنها، وجزالتها، وقوتها، وعمق معانيها، وسمو غاياتها، شيء .

ولهذا كانت لغة القرآن الكريم الفريدة، هي اللغة الأصل، التي استوعبت أكثر مما استوعبته القواميس، والمعاجم العربية الفصحى، فصار القرآن الكريم بذلك هو المقياس؛ الذي يقاس عليه، وهو القاموس؛ الذي يستخرج منه، وهو المعجم؛ الذي يبنى عليه .

وكل ذلك في آيات تتكون من مجموعة ألفاظ مختارة بعناية، بحيث لو تغيرت لاختلف المعنى، واختل السياق الإعجازي، والتركيبي اللفظي، فمجموع آيات القرآن الكريم (٦٢٣٦) آية، تزيد قليلاً أو تنقص، بحسب اختلاف روايات علم القراءات، ومع هذا فقد حوى ذلك العدد من الآيات، وهو ليس بكثير؛ حوى ما لا حصر له من التشريعات، والتعاليم، والتوجيهات، القرآنية، فرب آية واحدة جاءت بتعاليم كثيرة، وبتوجيهات عديدة .

لذا فمن عمق بلاغة القرآن الكريم أن أسلوبه العظيم جاء محتملاً لوجوه إعجازية كثيرة، كلما تقدم الإنسان في مجال العلم والمعرفة كشف القرآن الكريم مدى غزارة ألفاظه، التي استعملها في النص، ومدى إفادته لأمور لم تكن لتفهم في حينها، ولكن القرآن الكريم ترك فهمها للبشر، بحسب تقدمهم العلمي والمعرفي بوجه عام .

وبهذا تعد الألفاظ والأساليب القرآنية، كما لو كانت مخزناً تفيض بالمعاني والمعطيات، فالتعبير القرآني أقصر وأوضح وأشمل وأبلغ في المعنى . لكل جيل عطاء، يرتبط بما فتح الله تعالى لهم؛ من علوم ومكتشفات .

والآيات بذلك تحتمل بل وتستوعب ما جد من جديد، وهذا ما أعطى للقرآن الكريم ميزة بلاغية فائقة واضحة، فالقرآن الكريم بعمومه مكون من سور، والسور مكونة من آيات، والآيات مكونة من كلمات، والكلمات من أحرف، كل ذلك

بتراكيب وأساليب ودقة عجيبة، تميزت بحسن العبارة وجودة الفكرة والتأثير في السامع . من خلالها بنى القرآن الكريم منهجه الوقائي . بلاغة لا نظير لها .

وقد تميزت الأساليب القرآنية بميزات كثيرة، وإجمالاً يمكن تقسيم تلك الأساليب البليغة، التي استعملها القرآن الكريم لبيان مقاصده، وتأصيل مراداته، وإظهار أهدافه، إلى أسلوبين بيانيين بلاغيين . سأعرض كل أسلوب في مطلب :

المطلب الأول : الأمر والنهي الصريحان .

المطلب الثاني : ما يدل على معنى الأمر والنهي .

المطلب الأول : الأمر والنهي الصريحان[1] :

أسلوب[2]، القرآن الكريم هو الطريقة التي يفصح بها عن نفسه، فهي طريقة التعبير القرآني لفهم الخطاب[3]، في سياقه[4]، لبيان مرادات الآيات ومقاصدها .

وأسلوب التعبير القرآني هذا، خاطب به تبارك وتعالى عموم الخلق، مستغرقاً بذلك عرض الزمان؛ من مبعث محمد ﷺ وإلى قيام الساعة، بجوامع الألفاظ، وأغناها، وأدلّها، وأخيرها، للدلالة على المعنى .

وقد اتسم التعبير القرآني، وسياق الآيات، وأسلوب الخطاب فيه، بدقه فاقت كل دقة، وببلاغة تجاوزت كل بلاغة لها مرونة واستغراق، تخلل ذلك العرض البليغ الموجز سبك المنهج الوقائي فيه، بسياقات وألفاظ وصيغ متعددة ومتنوعة، فبحسب موضع اللفظ يتغير معناه، استعملها القرآن الكريم في الدلالة على مراده ومنهجه الوقائي الحق .

وألفاظ القرآن الكريم وأساليبه متفاوتة الدرجة، من حيث درجة الإلزام بها، أمراً ونهياً، أو حثاً وحضاً، وما إلى ذلك، الهدف منها والمقصد الرئيس لها، من حيث العموم تحقيق المنهج الوقائي، وصدق سبحانه القائل جلت عظمته في سورة هود : ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ ﴾ .

---

[1] الأمر : طلب فعل الشيء . والنهي : طلب الكف عن شيء ما . سواء مادياً أو معنوياً .

[2] الأسلوب : طريقة الكتابة، أو الإنشاء، أو اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير .

[3] الخطاب : الكلام .

[4] سياق الكلام : تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه .

والأمر والنهي الصريحان جاءا بالمنهج الوقائي في القرآن الكريم، بأساليب كثيرة وصيغ[1]؛ عديدة، ورد بها الخطاب القرآني، بحسب سياق الآيات، ومفاد التوجيه الرباني فيها، مجملها يندرج ضمن ثلاثة سياقات أو صيغ :

١- صيغ الأمر : وهي كل صيغة وردت في القرآن الكريم أفادت الفعل اللازم، وتختلف تلك السياقات والأساليب بحسب صيغة الأمر الواردة في الآية، بما يناسب مقاصدها وأهدافها . فهي :

أ- صيغة الأمر الصريح : كقوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

ب- صيغة المضارع المجزوم بلام الأمر : كقوله تعالى في سورة الطلاق : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ﴿٧﴾ ﴾ . والتقدير : أنفقوا من سعتكم .

ج- صيغة اسم فعل الأمر : كقوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴿١٠٥﴾ ﴾ . والتقدير : أي الزموا شأن أنفسكم واحفظوها .

د- صيغة المصدر النائب عن فعل الأمر : كقوله تعالى في سورة محمد : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ ﴿٤﴾ ﴾ . والتقدير : فاضربوا الرقاب .

---

[1] الصيغة : الكلمة على هيئتها الحاصلة من ترتيب حروفها وحركاتها .

٢- صيغة النهي : وهي صيغة واحدة فقط وردت في القرآن الكريم، أفادت الكف عن الفعل، تعرف بصيغة (المضارع المقرون بلا الناهية) . كقوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ ﴿١٥٢﴾ ﴾ .

٣- صيغ مشتركة : وهي كل صيغة وردت في القرآن الكريم، احتملت الأمر والنهي سواء، وبحسب سياق الكلام ومفاده نفهم المقصد إن كان للأمر أو النهي، وهي كثيرة أهمها : "الدعاء، الالتماس، الإرشاد، التمنّي، الترجّي، التيئيس، التخيير، التسوية، التعجيز، التهكّم والإهانة، الإباحة، التوبيخ والتأنيب والتقريع، الندب، التهديد، الامتنان، الاحتقار والتقليل من أمر الشيء، الإنذار، الإكرام، التكوين، التكذيب، المشورة، الاعتبار، التعجّب أو التعجيب" . إلى غير ذلك من معان .

وقد تبوأ الأسلوب الصريح من عموم أساليب الخطابات الواردة في القرآن الكريم، المكانة المقدمة في ذلك، لما له من قوة ووضوح، ودلالة مباشرة لمضمون الآية ومدلولها .

وخطابات القرآن الكريم كثيرة؛ متعددة الأساليب متنوعة السياقات، وردت على خمسة عشر وجهاً، وهي الخطاب : "العام، والخاص، والجنس، والنوع، والعَين، والمدح، والذمّ، وخطاب الجمع بلفظ الواحد، والواحدِ بلفظ الجمع، وخطاب الجمع بلفظ الاثنين، (وخطاب الاثنين) بلفظ الواحد، وخطاب الكَرَامة، وخطاب الهوان، وخطاب العَيْن والمراد به غيره، وخطاب التلوّن"[١].

[١] الفيروز أبادي . بصائر ذوي التمييز . ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . ج١، ص١٠٨ . وقد ذكر الزركشي في كتابه البرهان في علوم القرآن . ط١، دار الكتب العلمية . ج٢، ص١٣١ : (أن عدد وجوه المخاطبات والخطاب في القرآن الكريم تأتي على نحو من أربعين وجهاً) .

وهذه الخطابات عامةً، موجهة للمخاطب بوجه واضح وصريح، بخلاف خطابات التلون التي تختلف من حيث انتقال الخطاب ما بين المخاطب والمخبر عنه؛ وهو الذي يسميه أهل اللغة بالإلتفات، أي : انصراف المتكلم من المخاطبة إلى الإخبار، ومن الإخبار إلى المخاطبة، أو الانصراف من معنى إلى معنى آخر . هذا النوع من الخطابات في القرآن الكريم جاء على ثلاثة أوجه :

الأول- أن ينتقل من الخطاب إلى الخبر، كقوله تعالى في سورة الروم : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ . ثم قال : ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ . نلاحظ بداية الخطاب كانت للجميع بلفظ (آتيتم)، ثم انصرف إلى للإخبار عن الجزاء بفظ (فأولئك).

الثاني- أن ينتقل من الخبر إلى الخطاب، كقوله سبحانه وتعالى في سورة الإنسان : ﴿ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ . ثم قال : ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾ . نلاحظ هنا إخباره سبحانه عن جزاء أهل الجنة بلفظ (وسقاهم) ثم عدل إلى المخاطبة بلفظ (لكم) .

الثالث- أَن يكون الخطاب لمعين، ثم يُعدَل إلى غيره، كقوله تعالى في سورة الفتح : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ . ثم قال : ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ . نلاحظ هنا الخطاب كان للرسول ﷺ بلفظ (أرسلناك) ثم عدل عنه إلى مخاطبة الأمة بلفظ (لتؤمنوا) .

وهذا النوع من الخطاب، الذي يعدل فيه بين المخاطبين، عادة يكون لواحد، وهو محمد ﷺ ومن ثم يعدل الخطاب للأمة من بعده . وإجمالاً فهو يأتي في القرآن الكريم لمقاصد عديدة، أرسى خلالها جملة من الوقائيات :

١- فقد يأتي الخطاب للدلالة على الفعل؛ وحصوله من غيره ﷺ بطريق الأولى، كقوله تعالى مخاطباً نبيه الكريم ﷺ في سورة آل عمران : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ .

٢- وقد يأتي اعتناءً بإلزام المخاطبين، كقوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ في سورة النساء : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ ﴾ .

٣- وقد يأتي للمبالغة في تشريف المؤمنين، كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾ .

٤- وقد يأتي مبالغةً في حمل الأمة على الامتثال، كقوله تبارك وتعالى مخاطباً نبيه الكريم ﷺ في سورة البقرة : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ ﴾ .

٥- وقد يأتي تنبيهاً على أن الحجةَ قد لزِمَت، ولم يبقَ بعد ذلك لأحد عذرٌ في عدم القبول، كقوله سبحانه وتعالى في سورة النساء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم

ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧٠﴾ ﴾ .

وبذلك يتضح أن مجمل خطابات القرآن الكريم الواضحة الصريحة، التي جاءت دالة على مراد الله سبحانه وتعالى، المتضمن المنهج الوقائي؛ تندرج إجمالاً ضمن حالتين اثنتين، بحسب وجهة الخطاب ودلالة السياق منها :

الأول : الأسلوب الخطابي (العام) :

كل خطاب في القرآن الكريم جاء متضمناً تشريعاً، من أمر أو نهي، تناول في مضمونه الأمر بالوقاية، سواء اختص بالجانب المادي، أو اختص بالجانب المعنوي . فكل آيات القرآن الكريم التشريعية، ومقاصدها، وأهدافها، جاءت مشتملة على ذلك . وبالاستقراء؛ وجد أن آيات الأمر والنهي الصريحان في القرآن الكريم، والتي جاءت بأساليب كثيرة؛ وردت مجملها بأربعة ألفاظ :

١- الأمر الصريح الملزم إلزاماً مباشراً : والذي صرح فيه ذكر لفظ (الوقاية) كقوله تعالى في آيات كثيرة من سور كثيرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ . والأمر الصريح بالتقوى، يعد من أقوى صيغ تحقيق الوقاية وأساليبها، لما ورد في الآية الكريمة .

٢- الأمر الصريح الذي لم يصرح فيه ذكر لفظ (الوقاية) : كقوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ . وكل أمر رباني يراد به على وجه الحقيقة، تحقيق الوقاية فيه ولا ريب، وإن لم يرد في الآية لفظ الوقاية صراحة .

٣- النهي الصريح الملزم إلزاماً مباشراً : والذي صرح فيه ذكر لفظ (الوقاية) كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾ . والنهي الصريح المقترن بلفظ التقوى أيضاً، يعد من أقوى صيغ تحقيق الوقاية وأساليبها، لما نهت عنه الآية الشريفة .

٤- النهي الصريح الذي لم يصرح فيه ذكر لفظ (الوقاية) :كقوله تعالى في سورة الحجرات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .

وكل نهي رباني يراد به الوقاية على وجه الحقيقة، لما تضمنه النص من منهيات .

وبهذا يتبين أن القرآن الكريم استعمل اللفظ الصريح، الدال على الأمر والنهي، في الدلالة على الوقاية، لما حواه سياق الآيات بكل وضوح .

الثاني : الأسلوب الخطابي (الخاص) بالنبي ﷺ :

كل خطاب في القرآن الكريم توجه للنبي ﷺ في البدء بصيغة التشريع مما ليس هو من خصوصيات النبوة، فهو له ﷺ وللأمة من بعده ولا ريب . هذه هي حكمة التشريع .

وقد وجد بالاستقراء أن القرآن الكريم يخاطب النبي الأكرم ﷺ بخطاب لفظه خاص والمقصود منه تعميم الحكم لجميع الأمة، ويتباين هذا النوع من الخطابات؛ من حيث الأساليب والسياقات القرآنية بوجه عام، ومن حيث تحقق المنهج الوقائي

من خلاله، في كلا حالتي الأمر أو النهي . والأمة في كل حال معنية بذلك، وما رسول الله ﷺ إلا مبلغ عن ربه سبحانه الشرع المطهر . وحالات ذلك :

١- الأمر والنهي الصريحان، باستعمال لفظ الوقاية في الخطابات الموجهة له ﷺ، هي له ﷺ ولأمته من بعده، قال تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ ﴾ .

٢- الأمر والنهي الصريحان، من غير استعمال لفظ الوقاية في الخطابات الموجهة له ﷺ، هي له ﷺ ولأمته من بعده، قال تعالى في سورة محمد : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾ .

٣- الأمر والنهي الصريحان، ببيان حقيقة بشريته ﷺ وأنه كباقي الخلق في تكوينه البشري، قال جلت قدرته في سورة الأعراف : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ .

٤- الأمر والنهي الصريحان، ببيان حقيقة منهج رسالته، والهدف من مبعثه ﷺ قال تعالى في سورة الشورى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

٥- الأمر والنهي الصريحان، بذكر أقوال النبي ﷺ وخطاباته في القرآن الكريم، قال تعالى في سورة الجن : ﴿ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾ .

٦- الأمر والنهي الصريحان، بذكر بعض أوصاف النبي ﷺ حري بمن بعده الاتصاف بها، قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ .

٧- الأمر والنهي، بذكر أحوال النبي ﷺ وتصرفاته قال تعالى في سورة التحريم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ .

٨- الأمر والنهي، ببيان أنه ﷺ أسوة للخلق، في كل شيء يجب الاقتداء به، قال تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ .

وبهذا يظهر أن القرآن الكريم استعمل كل أنواع الخطاب الموجه له ﷺ ليكون للأمة من بعده، فهو ﷺ المعلم لأمته، إلا فيما يخص مقام النبوة والرسالة الخاص به ﷺ .

المطلب الثاني : ما يدل على معنى الأمر والنهي :

عموم الخطابات والسياقات القرآنية التي تحدثت عن المنهج الوقائي، إنما جاءت لتحقق أحد أمرين هما : (افعل ولا تفعل) استعمل القرآن الكريم خلالها أساليب كثيرة متعددة، للدلالة على الوقاية، أساليب لغوية، وبلاغية عديدة، من غير الأساليب الصريحة، منها ما جاء دالاً على فعل أمر خرج عن معناه الأصلي، ومنها ما جاء دالاً على نهي خرج عن معناه الأصلي، ومنها ما جاء محتملاً الوجهين معاً .

والقرآن الكريم حين ينوع الخطاب، ويعدد أساليبه وألفاظه، يكون بذلك قد وافق كل ما عند الإنسان من انفعالات ورغبات نفسية، ووافق كل ما عنده من شهوات قلبية، ووافق كل ما عنده من طاقات وأفكار عقلية، فتارات يخاطبه بأساليب الترغيب والتحبيب، ليوقفه على الحق جلياً لا مرية فيه .

وأيضاً وافق كل ما في النفس من جنوح وانحراف، ووافق كل ما في القلب من إثارة وعنفوان، ووافق كل ما في العقل من شطح وشرود وخيال، فخاطبه تارات بأساليب الترهيب والتخويف، ليرده إلى الحق رداً هيناً مبيناً لا يحيد عنه .

حتى أسلوب الالتفات والتلوّن والذي ركز فيه القرآن الكريم على الخطابات الموجهة للنبي ﷺ والأمة من وراء ذلك؛ فيه إشارات لطيفة وأساليب مرققة، خوطب بها الأعلى شأناً ليتمسك بها الأدنى من باب الأولى، ومن باب القدوة والتأسي .

ويلاحظ أن هذه الأساليب القرآنية المتنوعة، والمتبايتة، قد وظفها القرآن الكريم التوظيف المنضبط، ليوافق خلالها كل أحوال المخاطب، سواء التي ترغبه وتستميله، أو التي ترهبه وتخوفه، أو التي تبين له الحق كل بيان، بحيث لا يبقى معها أدنى حجة لمحتج، أو اعتراض لمعترض أبداً .

وبهذا يكون القرآن الكريم قد جاء على كل ما يمكن أن يحقق به مفهوم المنهج الوقائي تماماً، وما ترك أية طريقة، أو أي أسلوب، إلا وقد استعمله في إرساء ذلك، ليحقق مراده بالدقة المتناهية، وعلى الوجه المطلوب .

وعموم هذه الأساليب الواردة بحسب سياق الآيات، على اختلاف تصنيفها عند أهل اللغة، سواء ضمن علم البيان أو المعاني أو البديع، يمكن أن تقسم إلى ثلاثة أساليب رئيسة، تحوي كل معاني الأمر والنهي اللذين خرجا عن معناهما الصريح :

أولاً- أساليب الترغيب : تجلى ذلك في كثير من الآيات التي اتسمت بأساليب ترغيبية كالإغراء، والحث، والحض، والتشويق، والبشارة، والتحبيب، والترقيق، وما إلى ذلك من أساليب تأتي من حيث الإجمال بمعنى الأمر[1]، بحسب السياق ودلالة الخطاب .

وقد استعمل القرآن الكريم فيها كلمات وألفاظ مرققة، ومؤثرة، في محاولة استمالة النفوس، وإقناع العقول، والتأثير على القلوب، وإبراز محاسن هذا الدين ومنهجه الوقائي الحق، كقوله جل ربنا في علاه في سورة الزلزلة : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ ﴾ . فالتقليل هنا يراد به غاية الإغراء والتحضيض، بأقل عمل صالح ينفع صاحبه يوم القيامة . ومن جملة أساليب الترغيب تلك :

[1] الحديث هنا عن أساليب جاءت بمعنى الأمر على اختلاف تصنيفها عند أهل اللغة، سواء كانت مدرجة ضمن علم البيان أو المعاني أو البديع . وليس ذكر صيغ الأمر آنفة الذكر .

١- أسلوب الحث والتحضيض، والحث هو الترغيب في فعل الشيء، أما الحض فهو الترغيب على فعل الشيء أو على تركه، وهما أسلوبان قرآنيان يراد بهما الدعوة اللطيفة لفعل ما يحقق المصلحة والمنفعة للمسلم، ويدرأ عنه المفسدة والمضرة، من باب التحفيز للفعل الوارد في الآية، كقوله تعالى في سورة الشعراء : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ . وحرف (ألا) هنا يستعمل للعرض والتحضيض.

٢- أسلوب المدح، وهو الثناء باللسان على الفعل الحسن، ويكون عادةً على الأفعال التي يحبها الله تعالى ويرضاها، وفي ذلك دعوة للمسلم لفعل كل ما يستوجب عليه المدح، للفوز بالجزاء الحسن، والبعد عما يخالف ذلك، كقوله تعالى في سورة النحل : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

٣- أسلوب التأييد، وهو النصرة والمعونة، ويأتي من باب إظهار معونة الله تعالى لعبده المسلم، جزاء إيمانه، وطاعته، وانقياده لأمره عز وجل، كقوله تعالى في سورة التوبة : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ . ويضاد التأييد، الخذلان حال اقتراف العبد كل ما يغضب الله تعالى .

٤- أسلوب التحنن، والاستعطاف، وكلاهما يراد به إعلان الخضوع بغية استدرار الشفقة والرحمة فيما بين المتخاصمين، كقوله تعالى في سورة النحل : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ . ففي الآية ترقيق للمسلم وتحنين لقلبه، استعطافاً له، وتحفيزاً ليعفو عن أخيه، ويصفح عن العقوبة، وفي ذلك تعليم رباني في كيفية التعامل لما يقع بين المسلمين حال الخلاف، وهذا في حد ذاته وقاية لهم، وتوجيه وإرشاد في مثل هذه المواقف .

٥- أسلوب الامتنان، وهو العطاء بلا استحقاق، ويأتي من باب التذكير بنعمة من نعم الله تعالى على خلقه، والتحذير من كل ما يستوجب منعها، وحرمان العبد منها، كقوله تعالى في سورة الأنفال : ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

٦- أسلوب إظهار القدوة الحسنة[1]، وقد تركز أسلوب القرآن الكريم في ذلك، بالدعوة للتخلق بخلق الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، ولا سيما خلق نبينا الكريم ﷺ بالدرجة الأولى،كقوله تعالى في سورة القلم : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ .

٧- أسلوب مخاطبة الوجدان وانفعالات النفس، والوجدان : إحساس المرء بما في باطنه، كقوله تعالى في سورة الرعد : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ

[1] القدوة : التقدم على الغير في مجال واحد، أما الأسوة فهي التقدم عليه في كل مجال من مجالات الخير والبر .

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ . ففي مثل هذه الآيات تشعر النفس بمدى الارتياح والطمأنينة؛ لأنها لامست ما بداخلها من خلجات، ونزوعات، ووجدانيات، وانفعالات، وفي ذلك دعوة لتتخلق بها والتمسك بما يحقق ذلك، وهذا في حد ذاته وقاية لما دعت إليه الآية .

٨- أسلوب إظهار مدى حرص الرسول ﷺ على أمته لهدايتهم، وهو أسلوب قرآني كبير يبرز غاية سماحة هذا الدين، وكريم سجايا هذا الرسول الكريم ﷺ المبعوث رحمة للعالمين، كقوله تعالى في سورة التوبة : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ . وهذا في حد ذاته وقاية تعصم من الهلاك بمخالفة أمره ﷺ وأمر الله جلت عظمته .

وهكذا تبين أن القرآن الكريم قد استعمل أساليب ترغيبية كثيرة، لتحقيق مقاصده، وأغراضه، وأهدافه، ومساعيه، والتأكيد عليها، لكل ما يريد الأمر به، أمراً صريحاً أو ضمنياً بحسب سياق الآية، وقاية للناس متى تمسكوا بمنهجه .

ثانياً- أساليب الترهيب : تجلى ذلك في كثير من الآيات، التي اتسمت بأساليب ترهيبية كالتخويف، والتهديد، والتحذير، والوعيد، والتوبيخ، والنذارة، والتنفير، والتهكم، وما إلى ذلك من أساليب تأتي في معنى النهي، ساقها القرآن الكريم للدلالة على المنهج الوقائي، على اختلاف درجات النهي فيها تحريماً، أو تنزيهاً، أو كراهة، بحسب السياق ودلالة الخطاب .

وقد استعمل فيها القرآن الكريم كلمات مفزعة في محاولة زجر النفس وردعها عن طغيانها، ومنع العقل عن الاستمراء في غيه، وقسر القلب عن جموده وصلفه، بإظهار مساوئ الانحراف عن المنهج الحق، أو الخروج عن مضمونه، كقوله تعالى في سورة الزلزلة : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ . فالتحقير هنا يراد به غاية التخويف والترهيب، من أدنى عمل سيئ قد يوبق صاحبه يوم القيامة . ومن جملة أساليب الترهيب تلك :

١- أسلوب التعريض، وهو إفهام السامع بالمراد من غير تصريح القول، ويكون عادة بذكر فعل الآخرين الخاطئ؛ المشابه من حيث العلة، المستوجب لذات العقوبة، وذلك بقصد التحذير من الوقوع في مثله، وهذا في حد ذاته وقاية، كقوله تعالى في سورة يونس : ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

٢- أسلوب التهكم، وهو إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال، استهزاء بالمخاطب، من باب التنكيل والاستخفاف به والاستهزاء بالقول معه؛ جرّاء إعراضه عن الحق، وتجاهله لصوته الذي لا يخفى، كقوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ .

٣- أسلوب التنفير، وهو الدعوة للبعد عن الشيء، ويكون برسم صورة موحشة عما يراد النهي عنه، بقصد تبشيع الفعل المنبوذ واستنكاره،كقوله تعالى في سورة الحجرات : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ ﴿١٢﴾ ﴾ .

٤- أسلوب التلهف والتحسّر، على الشيء الفائت، بذكر المآل الأليم الموجب للحسرة والندامة والتخويف منه؛ لأن ذكره قبل ملاقاته والوقوع فيه، وقاية للسامع من الصيرورة إليه، ولا ريب، كقوله تعالى في سورة الزمر : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

٥- أسلوب التحذير، وهو التحرز من الشيء مع الخوف منه، ويأتي من باب ترتب العقاب على المخالفة متى وقعت، والتنبيه على ذلك قبل وقوع المحذور والمكروه، كقوله تعالى في سورة التكاثر : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ ﴾ .

٦- أسلوب التعجيز، والعجز الضعف وعدم القدرة، وهو يأتي من باب المجاراة في القول، لإظهار ضعف المخاطب، وفقره، وقلة حيلته، كقوله تعالى في سورة فاطر : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ .

٧- أسلوب الإنكار، وهو الاستفهام عما لا يتصور، ويراد به عادة التعجب من التعامي، والتغافل عن شيء، بيّن لا يحتاج لإيضاح؛ لغاية وضوحه وبيانه، كقوله تعالى في سورة التوبة : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

٨- أسلوب التأنيب، وهو المبالغة في التوبيخ والتعنيف، ويكون عادة بارتكاب الشيء المكروه والمنهي عنه، وهذا في حد ذاته وقاية، قال تعالى في سورة الأحقاف

: ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

٩- أسلوب رد الإدعاء الباطل، وهو أسلوب قرآني كبير استعمل فيه القرآن الكريم رد الحجج، وفضح الأكاذيب، وكشف الأراجيف، وإبطال المزاعم، كقوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ ﴿١٨﴾ ﴾ .

١٠- أسلوب التكذيب، والكذب كل ما خالف الواقع، وهو يأتي من باب فضح إدعاء المخاطب، وزيف قوله وبطلان حجته، كقوله تعالى في سورة الجمعة : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾ .

وبهذا اتضح كيف استعمل القرآن الكريم أساليب ترهيبية كثيرة، نبه من خلالها المسلم وحذره من الوقوع في أمور نهى عنها ربنا جل في علاه، في منهجه الوقائي الحق التام . وأسلوب الترهيب أسلوب قرآني كبير .

ثالثاً- أساليب البيان : تجلى ذلك في كثير من الآيات، التي اتسمت بأساليب بيانية، كالإعلام، والتقرير، والتحقيق، والتعليق، والإشارة، والعرض، والتذكير، والاعتبار، وما إلى ذلك من أساليب استعملها القرآن الكريم للدلالة علي المنهج الوقائي، جاءت محتملة الأمر والنهي معاً .

وقد تنوعت تلك الأساليب البلاغية، من حيث انتقاء الكلمات، التي من خلالها لامس القرآن الكريم غايات النفوس، وأبعاد العقول، وتقلبات القلوب،

فوجه حينها الخطاب التوجيه الصحيح المناسب لحال المخاطب، بأساليب وافق فيها كل حالاته وأحواله، في محاولة لإيقاف العقل والقلب والنفس على مراد الله سبحانه، وقبول الحق الذي جاء من عنده، والإعراض عن الباطل كقوله عز وجل في سورة الممتحنة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ﴿١٣﴾ ﴾ .

ومن جملة تلك الأساليب :

١- أسلوب التحقيق، وهو التثبت والمعرفة، ويأتي من باب تأكيد مفاد الخطاب، بذكر سبب ذلك وبيانه،وهذا ولا ريب وقاية لما ورد في الآية من مفاد، وفي الوقت نفسه تحذير من مخالفته، كقوله تعالى في سورة المؤمنون : ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١﴾ ﴾ .

٢- أسلوب التعليق، وهو حمل الشيء على غيره لملازمة بينهما، من باب ربط أمر بآخر يعد من مقتضياته التي لا ينفك عنها، لفهم مضمون الخطاب على الوجه الصحيح وقاية للمخاطبين بما ورد في الآية، من أمر، أو نهي، كقوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾ ﴾ .

٣- أسلوب الاعتبار والتدبر، وملاحظة الحوادث، والحذر من الوقوع فيما وقع فيه الآخرون، ممن استحق العذاب، والعقاب، والجزاء، وقاية للمخاطبين، قال تعالى في سورة الأعراف : ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

٤- أسلوب التهويل، وهو التفزيع والتعظيم، ويأتي من باب المبالغة في التخويف والترهيب، بقصد التحرز من الوقوع في الخطأ والمعصية،كقوله تعالى في سورة القارعة : ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ ﴾ .

٥- أسلوب التعجيب، وهو استغراب حال الجهل بالشيء، ويأتي عادة من باب استثارة المخاطب، بالإنكار عليه ليتنبه ويصحو من غفلته،كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٢٤٣ ﴾ .

٦- أسلوب التهييج والإلهاب، وهو فعل ما لا يتصور تركه؛ أو ترك ما لا يتصور فعله، ويكون عادة بإيعاز النفس، وبث الحماسة فيها، والتحفيز الحثيث لما يراد فعله، أو تركه، بحسب مدلول الخطاب،كقوله تعالى في سورة النور : ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١ ﴾ .

٧- أسلوب التشبيه، ويكون عادة بذكر شخصين، أو موقفين، أو حالين، جمعت بينهما علة واحدة، فيذكر القرآن الكريم شخصاً، أو يسوق قصة، أو موقفاً لمن مضى، أشبه بموقف المخاطبين وحالهم، ينبه خلاله ويحذر وينذر من الوقوع في مثل ذلك العمل، الذي يقتضي ذات المصير والمآل،كقوله تعالى في سورة الصافات : ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ ﴾ .

٨- أسلوب الاحتباك، وهو حذف النظير من المقابل لدلالته عليه، ويكون بذكر شيئين في الآية كل منهما يقتضي الآخر، ويدل على حيثية متحققة فيه، والقرآن الكريم بسياقه الدقيق، يدل على ما حذف من كل واحد، بدلالة مفاد ما ذكر في الآخر[١]، كقوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾ ﴾ .

٩- أسلوب التمثيل، والتصوير، ويأتيان من باب استحضار الحدث في مخيلة العقل، وذهن السامع، لما يراد الحديث عنه، لكونه أبلغ من الخطاب المعتاد، من حيث وقع الدلالة وفهم المضمون، كقوله تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

١٠- أسلوب الحكاية على لسان الغير، وهو أسلوب قرآني يأتي ببيان حقيقة للمخاطب، يستفيد من ذكرها، حال الخطاب، ويضعها نصب عينيه، فلا يغفل عنها وقاية له، كقوله تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن

[١] فتقدير هذه الآية بعد فك الاحتباك يكون على النحو التالي : (فئة [مؤمنة] تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة [تقاتل في سبيل الشيطان]) . فدل في المقطع الأول؛ على أنها مؤمنة دلالة كلمة [كافرة] في المقطع الثاني . ودل في المقطع الثاني؛ على أنها تقاتل في سبيل الشيطان دلالة كلمة [تقاتل في سبيل الله] في المقطع الأول) .

سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

١١- أسلوب التنزل والمجاراة، وهو مسايرة المخاطب بالقول، والتساهل معه، والتغاضي عن مراده، بقصد قطع حجته، وإلزامه بضدها، حال عجزه،كقوله تعالى في سورة سبأ : ﴿ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

١٢- أسلوب التعليل، وهو بيان السبب من حصول الشيء، بقصد بيان الحقيقة لدفع اللبس، وإزالة الشبهة ومنع التساؤل، وقاية للمخاطبين، بما ورد في الآية من مفاد، كقول ربنا جل في علاه في سورة الأنفال : ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

١٣- أسلوب مخاطبة الجمادات خطاب من يعقل، بقصد تنبيه السامع والدعوة للتشبه بالمثل، والحذو حذوه من باب الأولى، وقاية المخاطبين بمفاد الخطاب قال تعالى في سورة فصلت : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ .

١٤- أسلوب الحديث بصيغة المستقبل، والتعبير عنه بصيغة الماضي، من باب التوقّي لشيء لم يحصل بعد؛ مع تحقق وقوعه، ويراد به غاية التخويف، لما يستوجب العذاب المترتب على المخالفة، فيما لو حصلت،كقوله تعالى في سورة الكهف : ﴿ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ ﴾ . وذلك لم يحصل بعد .

وغيرها من أساليب لغوية كثيرة . وبهذا اتضح أن القرآن الكريم قد استعمل في خطاباته أساليب بيانية، بلاغية، متنوعة، ومتعددة، لتحقيق مقاصده، ومراداته، وأهدافه، المتضمنة المنهج الوقائي .

وإجمالاً تبين أن القرآن الكريم قد استعمل كل أسلوب مباشر صريح، وغير مباشر ولا صريح لإرساء مفهوم الوقاية فيه؛ من كل وجه وبكل دقة .

أما الأساليب الصريحة فقد وجه فيها الخطاب، بصفة لا تحتمل إلا شيئاً واحداً، وهو تحقيق المنهج الوقائي بكل معاني الكلمة .

وأما الأساليب غير الصريحة فقد تنوع فيها القرآن الكريم، ليوافق كل حالات النفس فيستميلها، وكل أحوال تقلب القلب فيرققه، وكل لحظات خواطر العقل وسوانحه فيقنعه .

بالإضافة لما في ذلك من إقامة الحجة، من خلال الأمر بتحقيق الوقاية بكل وجه، ليتحقق للخلق نفعهم، ويدرأ عنهم ما يضرهم، ويفسد حياتهم .

المبحث الثاني : الأساليب الوعظية :

المطلب الأول : أسلوب القصص القرآني .

المطلب الثاني : أسلوب ضرب المثل .

المطلب الثالث : أسلوب الاعتبار بالسنن الكونية .

المطلب الرابع : أسلوب ذكر الضد (صفات المؤمنين وما يقابلها من صفات الكافرين) .

المبحث الثاني : الأساليب الوعظية :

وهي أساليب فصيحة بليغة، استعملها القرآن الكريم في عرضه، البليغ، الرائع، الشائق، المعجز، من خلال قوالب وعظية، وظف خلالها كثيراً من أغراضه، وأهدافه، ومقاصده، ومراداته، التي جاء بها، جمعت بين كونها لغوية بلاغية، وبين كونها صور وعظية، تحرك المشاعر، وتلفت الأنظار، وتشد الانتباه، وتثير الاهتمام، قوالب تصويرية تستحث العقل لإعمال الفكر، ولاستحضار الصورة فيه . غاير بها أسلوب الخطاب المعتاد .

وهذه المميزات المتغايرة بالجملة، استعملها القرآن الكريم ليوافق كل مرادات النفس، ولفتات العقل، ويستميل كل خواطر القلب، فأنى اتجهت النفس، أو التفت العقل، أو جال القلب بخواطره، وجد في حديث القرآن الكريم أسلوباً مقنعاً، دالاً على مراداته، ومقاصده، بما لا مرية فيه؛ وذلك لأنه إعجاز منهج حق، وكتاب هداية للناس . وتتبع هدايات القرآن الكريم لا تنتهي بزمان ولا بمكان، وهذا يعني أنه لا جمود في عطاءات القرآن الكريم أبداً .

هذه الأساليب القرآنية استوعبت كل أساليب الإعراض والاعتراض، التي قد تنشأ في النفس البشرية أو العقلية الإنسانية، بالحجة، والدليل، والبرهان، والإقناع، ليحق الحق ويبطل الباطل .

واستخدام القرآن الكريم أسلوب عرض الأحداث ولفت الأنظار، فيه تعميق لمعنى الوقاية، وبيان لمفهومها ومقاصدها وأهدافها، في محاولة التأثير المباشر على الإنسان، بما يرى ويسمع . أهم تلك الأساليب التي استعملها القرآن الكريم لإرساء مراداته، وبيان مقاصده، وإظهار أهدافه، من غير أسلوب الخطاب المعتاد، أربعة أساليب وعظية . سأعرض كل أسلوب منها في مطلب :

المطلب الأول : أسلوب القصص القرآني .

المطلب الثاني : أسلوب ضرب المثل .

المطلب الثالث : أسلوب الاعتبار بالسنن الكونية .

المطلب الرابع : أسلوب ذكر الضد (صفات المؤمنين وما يقابلها من صفات الكافرين) .

المطلب الأول : القصص القرآني :

القصة القرآنية هي : أخبار الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة، التي ذكرت في القرآن الكريم، وساقها لأغراضه ومقاصده .

وقد تبوأ القصص القرآني جزءاً ليس باليسير منه، تضمن عرض كثير من الأحداث، والأقوال، والمحاورات، ومن ثم وجّه لفهم مقاصده، وتلقي مراداته، وبلوغ أهدافه، وأغراضه، التي بكل حال لا تخلو من الإعجاز، بكافة مجالاته وصوره .

أرسى القرآن الكريم خلال ذلك، كثيراً من الفوائد، والمفاهيم، والوقائيات، قال سبحانه في سورة يوسف : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ .

ومنهج القرآن الكريم في ذكر القصص ليس هدفه والقصد منه إيراد تأريخ كامل، لأحداث تامة، أو سيرة وافية لأشخاص، وإنما القصد منه إيراد أمثلة يحتذى بها، ونماذج وأحداث يستفاد من ذكرها . ولذلك كان للقصص القرآني كثيرٌ من الفوائد :

١- الإخبار عن تواريخ بعض الأمم الماضية، وعن جهود الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، في سبيل نشر دعوتهم، وصراعهم مع أقوامهم، ومجادلاتهم ومناقشاتهم السديدة المتنوعة، لإظهار الحق وإبطال الباطل .

٢- بيان أن دعوة الأنبياء عليهم السلام واحدة، هي الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وإنذار الناس .

٣- القصة عنصر مشوق، جذاب محبب، مرغوب فيه في التربية والتعليم، وإثبات البراهين العقلية بالوقائع الحسية؛ وذلك يؤدي إلى غرس بذور الإيمان، والترغيب في

الطاعة، والترهيب من المعصية، الأمر الذي يجعل القصة مدرسة إلهية للمؤمنين، أساتذتها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

٤- إثبات توحيد الله سبحانه وتعالى وتقرير وجوده، وإثبات النبوات، ومسألة البعث والجزاء .

٥- التأييد الإلهي للرسل عليهم الصلاة والسلام، بما في كل قصة من مواعظ وعبر ودروس .

٦- إثبات نبوة محمد ﷺ .

٧- تكرار القصة الواحدة في سور القرآن الكريم أكثر من مرة، إنما هو لتحقيق مقاصد وأهداف ومعان كثيرة، لتكون ماثلة أمام الأعين في كل جيل .

وقد تكرر ذكر بعض القصص في القرآن الكريم، فجاء بأهداف كثيرة من خلالها أرسى مفهوم المنهج الوقائي فيه :

أ- كإيضاح أسس الدعوة إلى الله تعالى .

ب- تثبيت قلب النبي ﷺ وتصديق الأنبياء عليهم السلام .

ج- إظهار الحجة، بعرض تأريخ أقوام وبعض أحوالهم .

والقالب القصصي في القرآن الكريم جاء بأساليب وعظية عديدة، وطرق متعددة متنوعة، ليرسي مفهوم المنهج الوقائي؛ من خلال عرض الخطابات الموجهة للأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام مع أقوامهم، ومن خلال عرض بعض أحوال وأقوال لأقوام آخرين، ومن خلال ذكر بعض التفصيليات لحياة كل قوم، يبني القرآن الكريم عليها منهجه التوجيهي الإرشادي المناسب لهم، ومن خلال الحديث عن داءات الأمم ومعضلاتها، وسيء أخلاقهم، التي كانت سبب هلاكهم ودمارهم . ومن ثم التوجيه والإرشاد والتنبيه والتحذير منها، تجلى ذلك حين :

١- أمر القرآن الكريم بوجوب تحقيق العبودية لله تعالى، وحذر من عاقبة الكفر بربوبيته، أو الشرك في ألوهيته جلت عظمته، في عموم قصصه، كقوله سبحانه في سورة الأنبياء : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

٢- بيّن دور الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، في إقامة المنهج الرباني الحق، وأنهم رسل الله تعالى حقاً، الذين جاؤوا بشرعه المطهر، وبتعاليم دينه القيم، كقوله تعالى في قصة نوح عليه السلام في سورة الأعراف : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

٣- قرر وجوب طاعة الله سبحانه وتعالى، من خلال ما جاء على لسان الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، فهم الواسطة بين الخلق والخالق سبحانه، والمبلغون شرعه القويم، وتعاليم دينه الحنيف، ولا واسطة غيرهم، ولا سبيل إلى معرفة دينه تعالى إلا من خلالهم، كقوله تعالى في آل عمران : ﴿ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

٤- أظهر بعض معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام، تأييداً لما جاؤوا به وتصديقاً له، وبرهان قاطع على أنه من عند الله سبحانه، كقوله تعالى في سورالأعراف : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٣﴾ ﴾ .

٥- وضح أن دين الله تعالى واحد، وإن تعددت الرسالات السماوية، والشرائع الربانية، كل قوم بما يناسب حالهم، زماناً، ومكاناً، قال تعالى في سورة ص : ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ ﴾ . فتكذيب رسول واحد يقتضي تكذيب كل الرسل عليهم الصلاة والسلام .

٦- حث على التأسي بعموم الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، فهم معشر الهدى، وأئمة التقى، وخير من قام بشرع الله تعالى، كما أمر سبحانه؛ لأنهم أعلم الناس به وبمنهجه، قال عز وجل في سورة النحل : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ .

٧- اهتم بمسألة الرد على المخالفين، وإفحام الخصوم، بإقامة الحجة عليهم، واضحة جلية لا تشوبها أدنى شائبة، وقاية من الوقوع في مثل تلك الشبه والأباطيل، قال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ .

٨- أورد الداءات التي انتشرت في كل قوم، وكانت سبباً في هلاكهم، ليجتنبها كل من جاء من بعدهم، ويحذر من الوقوع فيها، وقاية للمجتمعات، كقوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ .

٩- أظهر غاية القدرة الإلهية، الدالة على وحدانيته عز وجل، ومطلق قدرته سبحانه، وتفرد مشيئته جل في علاه، بما لا يدع مجالاً للشك، قال جلت قدرته في

سورة البقرة : ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ .

١٠- عرض بعض أقوال الأنبياء عليهم السلام لأقوامهم، في معرض البشارة والنذارة، والترغيب والترهيب، ليبينوا منهج الله تعالى في الأرض ويقيموا شرعه، وقاية لأهلها مما قد يعصف بهم من شبهات وشهوات، قال تعالى في سورة النمل : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

١١- اهتم ببيان مسألة اختلاف الشرائع الربانية، كل قوم بحسب مقتضيات زمانهم، وما يحقق المصلحة الزمانية، والمكانية لهم، وفي ذلك دليل على مدى نفعية هذا الدين في حياة البشر، وهو أمر لا يمكن الاستغناء عنه، وقاية لهم من أن يحكم بعضهم بعضاً، بقوانين بشرية تحقق النفع لذويها دون غيرهم، من باب مصلحة قوم على حساب آخرين، قال تعالى في سورة المائدة : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴿٤٨﴾ ﴾ .

١٢- جلّى لنا جانب بالغ العناية الربانية، بالمؤمنين الصادقين، والأولياء الصالحين، مؤيداً لهم على أعدائه وأعدائهم، وفي ذلك دليل على صدق هذا الدين الحق قال تعالى في سورة يونس : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ .

١٣- أورد بعض المحاورات بين الرسل عليهم الصلاة والسلام، مع أقوامهم حال دعوتهم إلى الله جل جلاله، في معرض التوجيه والتعليم والإرشاد، لما في تلك المقاولات من تربية وتعليم وبيان كبير لكافة البشر، كقوله تعالى في سورة طه : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

١٤- لفت الأنظار حين ذكر حقائق متعددة عن تأريخ الأمم السابقة، التي لم تذكر في كتب التأريخ، من خلال تكرار القصة، بأساليب متعددة، ومتنوعة، مبثوثة فيه، كقصة موسى عليه السلام مع فرعون، والتي وردت في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، كل جزء منها أعطى حيثية زائدة، ومعلومة جديدة عما سواه، وبمجموع اللقطات تكمل القصة بصورتها الكاملة . وكل ذلك ليوقف على حقائق تأريخية، تؤيد جانب الإعجاز فيه، وتبين جانب الوقاية منه .

وبهذا يتضح أن القصة في القرآن الكريم جاءت لهدف تبينه، ولمقصد ترسيه، ولوظيفة تحققها، ولغاية تبلغها، فكانت بذلك لقطات شتى من قصص سيقت بسياقات بليغة، وأساليب دقيقة . كل كلمة ولفظة فيها تعطي معنىً بذاته، وقيمة تأريخية، أو أخلاقية، أو علمية، وما إلى ذلك .

وقد تنوع القصص القرآني بحسب الهدف من سوقه، وبحسب الغايات التي جاء بها ولها، فكان منه :

١- قصص الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام .

٢- قصص الأمم السابقة كقصة أصحاب الكهف، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل .

٣- القصص النبوي المعروف بالسيرة النبوية الشريفة العطرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم .

٤- قصص لبعض أشخاص غير أنبياء، سواء من أهل الكفر كالنمروذ وقارون، أم من أهل الإيمان كناصح قوم فرعون .

وعموم ذلك القصص أتسم بسمات، وتميز بميزات فريدة دقيقة، حفظت له وقعه، وبصمته، ولمحه، وإشاراته .

وقد دل على بعض تلك الخصائص الفريدة القرآن الكريم نفسه، ولا أدل على الشيء، من دلالته على نفسه بنفسه، فهو :

١- قَصص حق، جاء لإرساء أغراض إلهية، وشرائع ربانية، قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ ﴾ .

٢- أحسن القَصص؛ لأنه من عند الله تعالى لا تكلف فيه ولا مبالغات، قال سبحانه في سورة يوسف : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ .

٣- أن الرسول الأكرم ﷺ مأمور بتبليغه للناس، لتتحقق به العبرة والموعظة لهم، قال جل في علاه في سورة الأعراف : ﴿ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ .

وهكذا استعمل القرآن الكريم القالب القصصي لتوظيف مراداته، وإرساء مقاصده، وتأصيل وقائياته، في عرض أحداث، أظهرت غاية الفساد، جرّاء مخالفة المنهج الحق، والبعد عن الشرع الصدق، والتعامي عنه، والتمادي في الباطل، والسير على طرق الغي والغواية، واتباع سبل الضلال والردى .

استعمل القرآن الكريم القصة فيه؛ لتصوير أحداث، نقل الخطاب خلالها إلى صورة مشاهدة واقعية محاكية، بها ومن خلالها حذر، ونبه، ورغب، ورهب، وأبرز الفرق بين طريقين متضادين لا يمكن أن يتقابلا، أو يتلاقيا بحال، فجعل منها أسلوباً وقائياً، ملموساً، محسوساً، أظهر خلاله داءات المجتمعات، في زمان، ومكان معينين؛ فنقل بذلك التصوير الواقعي الحق، إلى توجيه عام لكل الزمان، وكل المكان، لتبقى الصورة عالقة في الأذهان، مستحضرة في العقول، بالغة الأثر في النفوس .

تلك هي القصة في القرآن الكريم، والغرض الرئيس، والهدف المنشود من سوقها فيه، عبر كبرى ودروس وفرا .

المطلب الثاني : ضرب المثل[1] :

المثل؛ هو إلقاء الشبه بين حال المخاطبين وحال أقوام سابقين لهم، جمعهم الموقف الواحد، أو القول الواحد، أو الفعل الواحد، فجيء به للتنبيه والتحذير، من مشابهة الفعل، تجنباً لملاقاة ذات العاقبة والمصير .

وقد استعمله القرآن الكريم لإرساء المنهج الوقائي، من خلال تصويره لأحداث كثيرة ماضية، أو لعرض مجريات مواقف مشابهة، يسوقها لوحدة الغاية والعلة، ومن خلال ذلك يوجه رسائل وقائية تحذيرية واضحة المعنى والمضمون .

وقد تنوعت أساليب ضرب المثل في القرآن الكريم، فتارة يذكر لفظ ضرب المثل في الآية، وتارة يستعيض عنه بجملة (ألم تر) أو قد يأتي بهما سواء، ورابعة قد يأتي بسياقات تدل على ذلك، بحسب نوع المثل المضروب، والغرض من سوقه .

وصدق سبحانه القائل في سورة الروم : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ . والأمثال في القرآن الكريم جاءت على ثلاثة أقسام :

١- الأمثال الصريحة، التي صرح بضرب المثل فيها . وهي عامة آيات ضرب المثل في القرآن الكريم، وآيات التشبيه فيه .

٢- الأمثال الكامنة، التي لم يصرح فيه التمثيل، لكنها تدل على معنى المثل؛ من كلام موجز . كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴿٦٨﴾ ﴾ . وقوله سبحانه في سورة الفرقان : ﴿ لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ . يلاحظ فيهما معنى المثل القائل : (خير الأمور أوسطها) .

[1] يراد بالمثل الشبيه والنظير، ويعرف بأنه : جملة من القول تنقل ممن وَردت فِيهِ إلى مشابهة بدون تغير . وقد يستعار ضربه للحال، أو للوصف، أو للقصة .

٣- الأمثال المرسلة، وهي جمل أرسلت؛ فجرت مجرى المثل، كقوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ . وقوله سبحانه في سورة يوسف : ﴿ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴿٥١﴾ ﴾ . وقوله عز وجل في سورة فاطر : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ . يلاحظ في هذه الآيات أن التعبير القرآني، لم يذكرها على أنها أمثال، ولكن الناس سيرتها أمثال .

وبالتالي كان ضرب المثل في القرآن الكريم له أغراض عدة، وظفها القرآن الكريم لإرساء مراداته وتأصيل مقاصده في :

١- بيان وجوب تصديق الرسل عليهم الصلاة والسلام، والتحذير من تكذيبهم برد الحق الذي أرسلوا به، والتعامي والتغافل عنه، كقوله تعالى في سورة يس : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ .

٢- أظهار القدرة الإلهية على الخلق، ليستحث عقل المخاطب، ليعمل فكره، فيعي الهدى من الضلال، وقاية له من التخبط والتوهان، وعصمة من طرق الشيطان، قال سبحانه في سورة البقرة : ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ .

٣- إظهار الفرق بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر، ليتبين للمخاطب غاية الفرق بين المتناقضات، بإظهار شكر النعم من كفرانها، وبيان موقف الشاكر لنعمه جل في علاه، من الجاحد الكافر المكذب بها، من خلال أسلوب المحاورة، ومن ثم التوجيه المناسب بما تضمنه، وقاية له من الضلال، كقوله تعالى في سورة النحل : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ .

٤- بيان عاقبة الكفر بنعم الله تعالى، والإعراض عن دينه؛ لأن ذلك يورث سخط الله عز وجل، وحلول نقمته، وزوال نعمته، كقوله سبحانه في سورة النحل : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ .

٥- بيان مدى قدرة الله تعالى المطلقة، في تصريف الكون، وتدبيره، وعجز من سواه أبداً، عن أدنى تصرف، أو فعل، أو تأثير فيه، بقوله سبحانه في سورة الحج : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ .

٦- تجلية جوانب العظمة الإلهية، بتقريب صورة ماثلة للعقل، عن بعض حقائق صفات الله تعالى، للوقوف على مراده جل شانه، ووقاية للعقل من شطح الخيال،

قال عز وجل في سورة النور : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

٧- التنفير وتقبيح الصورة القائمة في المثل المضروب، والأمر بالبعد عن التشبّه بها، تبشيعاً لها، لتكون أوقع في النفوس، وأرسخ في العقول، ترهيباً لترك الفعل المنبوذ،كقوله تعالى في سورة الحجرات : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴿١٢﴾ ﴾ .

٨- إبراز المعنى المراد؛ في صورة حية ملموسة، تكون أكثر حضوراً، في مخيلة العقل، وأجلى في التصور الذهني لها، لكشف حقائق كائنة، أو تصوير لغائب في قالب الحاضر، فتتضح الصورة بذلك، ويترسخ المعنى في الأذهان، بتأثير قوي، على الوجه المطلوب، كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ ﴾ .

٩- الترغيب في فعل الشيء المحبوب، كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ .

١٠- مدح ما يراد الحث عليه، والتحبيب فيه، تحفيزاً وحثاً، كقوله تعالى في سورة الفتح : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ .

١١- الإقناع وإقامة الحجة به، ومن خلاله، بأسلوب أبلغ، وأثر أوقع، في قرارة النفوس، وباطن العقل، وقاية للعقول من الضلال والضياع، كقوله تعالى في سورة العنكبوت : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

١٢- أحياناً كان يستعمل جملة (ألم تر) للتعجيب في ضرب المثل، ليستحث العقل، ويلفت النظر، للتأمل، والقياس بين المتناقضات، والمتباينات، وقاية للفكر من شطح الخيال، قال تعالى في سورة إبراهيم : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

وبهذا اتضح أن القرآن الكريم خاطب الناس بما يعرفون، من وقائع وحوادث مشابهة حصلت قديماً، تذكيراً ووعظاً، ليرسي مفاهيم وقائية جديدة، ترسخ في العقول، وتعطي فوائد مستقاة من الماضي، تثري الحاضر والمستقبل . ذلك هو القرآن الكريم، وذاك هو هدفه من سوق المثل فيه .

المطلب الثالث : الاعتبار بالسنن الكونية :

في القرآن الكريم كثير من الآيات التي تحدثت عن الكون، وعن خلق السموات والأرض، وعن قدرة الله تعالى العظيمة في كل جنبات الحياة، وعن علوم أخرى كثيرة .

سنن كونية خلقها الله تعالى لتسير في مجالاتها، التي حددها الله تعالى لها، وفق نظام رباني كوني محكم .

والآيات التي تكلمت عن هذه السنن الكونية، متضمنة الإعجاز بشتى أنواعه، وغيبيات، وخوارق عادات، وآيات باهرات، يحار أمامها العقل، تجعل الإنسان متى وقف على شيء منها، وقف مشدوهاً، متعجباً، مسبحاً بحمد ربه سبحانه .

وصدق جل في علاه القائل في سورة يس : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

والإنسان المخلوق الضعيف، كلما تقدم به العلم، تكشفت له، وتبدت أمام عينيه حقائق علمية، عن كثير من النظريات، والقوانين، الكونية، المبثوثة في هذا الكون الفسيح . وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تكلمت عن الإعجاز العلمي . هذا فضلاً عن الإعجاز اللغوي، واللفظي، والبياني، والغيبي، والتشريعي، والعددي فيه .

كما تحدثت تلك الآيات عن كثير من الأمور، التي ستقع في قابل الإيام، وعن المكتشفات التي ستحصل في مستقبل البشرية . كنهاية الكون، ومصير الأرض وما إلى ذلك، حتى أن سدس آيات المصحف الشريف تحدثت عن الكون، وعن تلك العلوم الحديثة والمكتشفات العلمية .

خلال تلك الآيات أعطى القرآن الكريم جملة من الحقائق العلمية، مع مرور الزمن تتبدى للخلق، وتظهر حقائقها، وتثبت أن هذا القرآن الكريم من لدن حكيم

خبير، تحقيقاً لقوله سبحانه من سورة فصلت : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

وقد استعمل القرآن الكريم خلال تلك الآيات التي تكلمت عن السنن الكونية، أساليب وقائية عديدة، لتأصيل مراداته، وإقناع الإنسان بمقاصده :

١- أظهر غاية التدبير الرباني، المتحقق في القدرة الكاملة، والمشيئة المطلقة، والعناية الفائقة، المحيطة بكل المخلوقات، المبثوثة في الكون من الذرة إلى المجرة، لإقامة الحجج على المعارضين، ببيان معالم تلك القدرة الربانية، بما لا قادر عليه إلا الله سبحانه، تصريفاً، وتدبيراً، وتقديراً، جل ربنا في علاه، ليقي بذلك، قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ .

٢- نبه من الغفلة الصارفة عن إدراك حقائق الكون، ولفت الأنظار للوقوف على عجائبه التي فيه، وإدراك عظمة مكوّنه، وخالقه العظيم، والوقوف على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وإحاطة عنايته بعموم الخلق، بذكر بعض مشاهد قدرة الخالق العظيم، وبديع صنعة المصور البارئ الحكيم، قال تعالى في سورة الروم : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ .

٣- تحدى المخاطبين، وبيّن عجز كل الآلهة من دون الله تعالى، عن تحقيق الهداية لعابديها، أو أدنى نفع، أو قوة، أو تأثير، وقاية للخلق من التخبط في مسالك الظلمات قال تعالى في سورة يونس : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

٤- أظهر كمال القدرة المطلقة، ببيان تنوع الخلق، كلٌ بما يناسب وظيفته في الدنيا، وفي ذلك دليل على عظمة الخلاق العظيم، الذي خلق فسوى وقدّر فهدى قال تعالى في سورة النور : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

٥- دعا للتأمل، والتبصر، والنظر، والتدبر، في حقائق هذا الكون، وتصرف الآيات، وتقلب الأحوال، للدلالة على الخالق العظيم، وإثبات وحدانيته، وربوبيته، وألوهيته جلت عظمته، في هذا الكون الفسيح، حين خاطب الضمير ليوقظه من غفلته، وليربطه بحقائق علمية دقيقة، أثبت العلم الحديث صحتها، ووافق جانب الإعجاز القرآني فيها قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ .

٧- عدّد النعم، وتحدث عن تواليها على العبد من غير استحقاق، وإنما تفضلاً منه سبحانه؛ ليتفكر الإنسان في حقيقة نفسه، وكيفية تكوينه، فيقف على الحقائق مجردة أمام عينيه، ليرى حينها المستحق الأوحد للعبادة والطاعة، قال تعالى في سورة

النحل : ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

٨- أظهر الإعجاز العلمي المطلق، الدال على صدق هذا الدين الحق، وما جاء به، بما في القرآن الكريم من إعجاز وافق حقائق الكون، وطابق دقائق العلم، وصادف بصائر العقل، وقاية له وحماية لطاقاته من الشرود والشطح، قال تعالى في سورة فصلت : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

٩- وبخ كل من فقد نباهته، وغطى عينيه عن رؤية الحق، ومعالم القدرة مما يسمع ويرى، فلم يلحظ عجائب الكون، ولم يفهم مقاصد الوجود، ولم يدرك أغراض الدين الحق، قال تعالى في سورة الغاشية : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ ﴾ .

وبهذا كان أسلوب الاعتبار بالسنن الكونية، والحقائق العلمية، والإعجاز في القرآن الكريم، وسيلة للإقناع، وإقامة الحجة، بما ظهر للناس من بديع صنع الله تعالى ومطلق قدرته، بطريقة تجعلهم يتفكرون في عظم هذا الكون؛ وأن خالقه ولا ريب أعظم منه .

أسلوب وقائي محسوس، مشاهد ملموس، يزرع في النفوس غاية تسامي هذا المنهج الحق، ومدى نفعيته في حياة البشر، جاء به لينفض عن العقول غبار تراكم الضلالات، ويزيل عن العيون غشاوة الشبهات، ويبرز صدق ما جاء به من أخبار وغيبيات، ويبرهن على مدى نفع المنهج الذي حواه، والشرع الذي تضمنه .

وبالتالي معرفة أن من وضع كل ذلك بحكمة، وتدبير، وعلم، وإبداع، وقدرة، وهو به خبير، هو ولا ريب خالق عظيم حق مبين، يستحق أن يعبد لا سواه سبحانه .

المطلب الرابع : الذكر بالضد (صفات المؤمنين، وما يقابلها من صفات الكافرين) :

عموم آيات القرآن الكريم جاءت بالبشارة للمؤمنين، وبالنذارة للكافرين؛ لأنه كتاب هداية عام، ومنهج متكامل، أرشد للحق، والخير، والبر، والهدى، والنور، وفي الوقت نفسه حذر من الباطل، والشر، والإثم، والضلال، والظلام .

وأسلوب الذكر بالضد، أو أسلوب المقابلة بين الفريقين، هو أسلوب قرآني أصيل، اعتمد عليه القرآن الكريم كثيراً حين يذكر الأضداد، والمتناقضات، في سياق الاستفهام، والتساؤل، للترجيح بينها تسهيلاً للمخاطب، ليقف على الفرق بكل سهولة ووضوح، حين يورد آية، ويذكر فيها فريقين اثنين، يسوق لكل فريق ما يناسبه، وما يوافق مقتضى عمله، باعتبارها نتيجة حتمية يستحقها، ومن ثم يترك له حرية الاختيار لما ترجح عنده، من غير عناء، ولا لبس، ولا تردد، ولا حيرة، ولا أية شبهات .

والقرآن الكريم حين يذكر المتقابلات يريد أن يسهل على العقل اختيار بين ما هو حق، وما هو باطل، كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ .

وقد ركز القرآن الكريم كثيراً على مسألة إجراء المقارنات، وذكر النظائر، لإيضاح الفروق، والوقوف على التفاوت الكبير، والبون الواسع بين كلا الفريقين؛ تأييداً للحق وأهله، وتعريةً للباطل وأصحابه، فقد استعمل تلك المقارنات :

١- لبيان العاقبة، وإيضاح الفرق الكبير بين العواقب الحسنة والسيئة، إذ لكل عاقبة؛ عمل مسبق استحق عليه ما لقيه من مصير، كقوله جلت قدرته في سورة الحشر : ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ

﴿٢٠﴾ ﴾ . وقوله تعالى في سورة الانفطار : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ .

٢- لإظهار الفرق بين الحق والباطل، محذراً من الاغترار بكثرة الباطل وأصحابه، والقائلين به؛ لأن الحق أحق أن يتبع، وإن كان قليلاً أو حتى واحداً كقوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ .

٣- للمفاضلة في العمل، ليظهر الفرق الكبير بينهما، وفي ذلك دعوة وتحفيز، وحث للمخاطب ليعمل حتى يظفر بالثواب، قال تعالى في سورة النساء : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ ﴾ .

٤- لبيان حال المخاطب، وموقفه من الأشياء، ومعرفة حقائقها، ليفرق بين الواعي المدرك لها، والغافل والمتغافل عنها كقوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

٥- لبيان العمل الصالح من الفاسد، موضحاً الفرق الواضح بينهما، والذي بدوره يقتضي ويستوجب الفرق في الجزاء والمصير، قال تعالى في سورة غافر : ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

٦- لإبراز حقائق علمية، تظهر جانب الإعجاز الداعي صراحة للإيمان بالله تعالى، القادر على الجمع بين الأضداد سبحانه، كقوله عز وجل في سورة فاطر : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴿١٢﴾ ﴾ .

٧- لإيضاح حقيقة الناس في هذه الدنيا، وتباين مواقفهم من الحق وقبوله، وأن الله تعالى هو الذي له مطلق القدرة سبحانه، كقوله عز وجل في سورة فاطر : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

٨- للتأييد الرباني لأوليائه الصالحين، وعباده المؤمنين، ممن آمن به واعتصم بربه سبحانه، وللدلالة على الخذلان لمن كفر، فتولاه الشيطان وأضله بأنواع الضلالات، وأدخله في غياهب الظلمات، كقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ .

٩- لتوبيخ أهل الضلال وتقريعهم؛ لأنهم يجورون في الحكم، ويعدلون عن الحق، ويريدون مساواته بالباطل في دنياهم، حين يلغون من عقولهم الرجاحة، والبصيرة، والعقلانية، والوعي، كقوله تعالى شأنه في سورة القلم : ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

١٠- لتبكيت أهل الباطل والكفر، وخزيهم، وفضح كذبهم، يوم تتكشف الحقائق، وفي ذلك دعوة صريحة لاتقاء ذاك المصير، والحذر من الصيرورة إليه، كقوله تعالى في

سورة الأعراف : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

١١- لإيضاح الفرق بين مصير أهل الحق والباطل، سواء في الدنيا أو في الآخرة، والحكم على نفسه بنفسه، إذ ليس المسيئ في دنياه، كالمحسن فيها ولا ريب، في كل شيء أبداً، قال تعالى في سورة الجاثية : ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

١٢- لترغيب أهل الإيمان والطاعة، وترهيب أهل الكفر والمعصية، كلٌ بما سيؤول إليه أمره في الآخرة، وفي ذلك دعوة صريحة للفوز والفلاح، ولتلافي مثل ذلك المصير الأليم، والتخويف به ومنه، قبل أن يحصل ويكون، قال تعالى في سورة الحاقة : ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴿١٩﴾ ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

وبهذا تبين أن القرآن الكريم استعمل أسلوب عرض المتقابلات، والاضداد، والمتباينات، ليتبين للمخاطب الفرق واضحاً جلياً لا مرية فيه، وحينها يحكم الإنسان على نفسه بنفسه، ويختار ما شاء منهما .

وهو أسلوب قرآني بياني بلاغي أصيل، واضح في إجلاء الفروق للعيان، بما لا يدع مجالاً للبس أو الجهل أو الشك والريبة .

والمحصلة هي أن القرآن الكريم قد استعمل أربعة أساليب، مغايرة لأسلوب الخطاب المعتاد، لإرساء مفهوم المنهج الوقائي من خلالها .

وهي أساليب تعطي بُعداً تصويرياً تتفاعل معها العقول، والقلوب، والنفوس، لما ترى، وتسمع، وتقارن، بالنظر لوقائع، وأحداث ثابتة، ونتائج متباينة، حاصلة، تستوجب الاستفادة منها، وأخذ العبرة والعظة بها، مما يقتضي ويحتم على المخاطب الظفر بالحسن، والبُعد عن السيء .

بخلاف الأسلوب الخطابي المعتاد، الذي قد يتعامل معه كثير من الناس ببلادة وغفلة وقلة وعي، الأمر الذي يجعلهم لا يتأثرون به .

وهذه الأساليب من خلالها وضع القرآن الكريم المنهج الوقائي في قالب جاهز وعرضه للناس، بعرض أحداث، وقص قصص، وضرب أمثال، ولفت نظر لسنن كونية، وإجراء مقارنات بين فريقين متناقضين، كل ذلك ليقف الجميع موقف الناظر المتبصر لتلك النتائج المعروضة أمامه .

هذه الأساليب بها ومن خلالها أرسى القرآن الكريم المنهج الوقائي، بتعميق مفهومها حين استعملها، الاستعمال الصحيح .

الفصل الرابع : فوائد الالتزام بالمنهج الوقائي في القرآن الكريم :

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : الفوائد الدنيوية العاجلة . وفيه مطلبان :

المطلب الأول : فوائد إجمالية :

المطلب الثاني : فوائد تفصيلية :

المبحث الثاني : الفوائد الأخروية الآجلة .

المبحث الأول : الفوائد الدنيوية العاجلة :

يتضح من خلال تتبع آيات المنهج الوقائي العام، متعدد الألفاظ، متباين الأساليب، مختلف الصيغ، أن له ثمرات عاجلة، يجنيها المسلم في دنياه . وصدق سبحانه وتعالى القائل في ثلاث آيات من سورة الطلاق :

١- قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ ﴾ .

٢- وقوله سبحانه : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤ ﴾ .

٣- وقوله عز وجل : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥ ﴾ .

وكفى بذلك ثمرات دنيوية عاجلة لكل من اتقى الله جل جلاله، وثمرات آجلة .

وتلك الثمرات في مجملها حافز، وداعٍ، لمعرفة كيفية إقامة شرع الله تعالى، وكيفية عبادته وطاعته سبحانه، ظهرت لنجني ثمارها وننعم في ظلالها .

وهي فوائد وثمرات متحققة لعموم البشر في دنياهم الفانية، جراء تحقيقهم المنهج الوقائي على الوجه الصحيح لا تختص بجانب بعينه .

المنهج الوقائي هو الحل الوحيد، الذي يضمن للبشرية جمعاء التكامل الإنساني، في حياة دنيوية متوازنة، يحقق انسجام الملكات البشرية تماماً، لتوافقه مع النظام الكوني في الحياة الدنيا . حتى غير المسلمين من عموم البشر، وبحسب نظرتهم القاصرة، وعلى فرض أنه لا جزاء أخروي ينتظر من تبع المنهج الحق؛ فإنه لا راحة لهم من شقاء الدنيا وعنائها، إلا بالسير، والرضا، والقبول، بمنهج حق متوازن، يضمن لهم كل الحقوق الدنيوية، من جلب للمصالح، ودرء للمفاسد، وحماية يوفرها للجميع، وليس لقوم على حساب آخرين أبداً، إذن ما ثم إلا ذلك المنهج الوقائي الإسلامي الحق، بشرعه المطهر الصدق، الذي شرعه ربنا جل في علاه، ووضعه لعموم الخلق وارتضاه لهم، وتكفل بكل خير يعود عليهم . علم ذلك من علم،

وجهله من جهل . وعموماً فأهم تلك الفوائد والثمرات التي تضمنها هدايات آيات القرآن الكريم :

١- الالتزام بالمنهج القويم يحقق جملة المنافع والمصالح الدنيوية، ويحمي البشر من شرور أنفسهم، ويقيهم من شرور بعضهم بعضاً، ويستجلب رضا الله تعالى، ويعم الجميع بالرزق، والبركة، ويحفظهم سبحانه بمنهجه الحق، قال تعالى في آيات كثيرة منها قوله سبحانه في سورة هود : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾ .

٢- معرفة مراد الله تعالى من الخلق، في هذه الدنيا، وهي العبادة، والطاعة، وإعمار الأرض بمراده جل في علاه، قال سبحانه في سورة الذرايات : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

٣- الحماية من الآثار السلبية للمفاسد والمضار، وتوقي خطرها، وضررها، بالسير على المنهج الحق، إذ لا بد للبشر من منهج حق يحميهم، ويحفظ لهم حياتهم، ويضمن سلامتها، ولا مقارنة بين مناهج البشر المشتتة، الناقصة، ومنهج الله تعالى المتكامل، التام، قال سبحانه في سورة الزمر : ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ .

٤- تتحقق كمالات الروح والجسد، من راحة القلب، وإطمئنان النفس وإنسجام ملكاتها، واستقامة الجوارح،لأنه جاء من عند الله تعالى فهو منبع الفوائد الدنيوية، ومخالفته أساس كل فساد في الأرض؛ بخلاف مناهج البشر القاصرة، التي وضعت

لتعالج جزئيات الحياة، لكنها تغفل عن جزئيات، وقضايا أخرى كثيرة، لا متناهية، قال تعالى في سورة الروم : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

٥- تكوين العلاقات المثمرة بين عموم الخلق، وتحقق المحبة فيما بينهم، بما لا مضارة فيه ولا فساد، والناس كلهم سواء يحتاجون لمن يضع لهم الدين الحق، والشرع الصدق، ولا قدرة لأحد منهم على وضع منهج متكامل، يشمل الجميع، لتباين عقولهم، فكان ولا بد أن يوضع الدين للبشر من قدرة تحيط بهم جميعاً، ولها هدف ومقصد من ذلك، لا أن يضعه أحدهم فيختلفوا فيما بينهم، قال تعالى في سورة الحجرات : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ .

٦- إقامة الصلاح في الأرض على مراد الله تعالى، والأرض ومن عليها ليست ملكاً لأحد من الخلق، فلا يسع أيهم أن يوجد منهجاً من عنده، يلبي الحاجيات بالضبط، لا سبيل لتحقيق ذلك، إلا بمنهج حق، ممن خلق الخلق، وجعل لذلك أهدافاً، ومقاصد عليا، قال سبحانه في سورة الأعراف : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

٧- مخالفة المنهج الحق هو الهلاك في الدنيا والآخرة؛ إذ لا إمكانية لنجاة البشر من دار هم فيها لا يعلمون حقيقتها، إلا باتباع من خلق الدارين، وجاء بالمنهج المحقق لعموم البشر، فيحقق لهم النجاة في الأولى؛ بتحقيق مصالحم ومنافعهم، ودرء المفاسد والمضار عنهم، ويحقق لهم النجاة في الأخرى ببلوغ منازل الرضا في دار

السلام، قال تعالى في سورة النساء : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ .

وهكذا ساق القرآن الكريم جملة من الآيات؛ بينت المنهج الوقائي وما له من آثار، وثمرات، وفوائد ملموسة، محسوسة، على أرض الواقع، على مستوى الإنسانية جمعاء، وليس المسلمين فقط .

والمحصلة هي أن القرآن الكريم بمنهجه الوقائي الحق هو سبيل النجاة، وحبل الله تعالى، الممدود إلى خلقه في الأرض، فمن تمسك به سعد، وأفلح، ونجا، ومن تركه خاب، وخسر، وهلك .

المبحث الثاني : الفوائد الأخروية الآجلة :

تكلم القرآن الكريم عن جملة من الآيات، التي أظهرت أسمى الغايات، وأغلى الفوائد، وأثمن الثمرات، الأخروية الآجلة، من جراء تطبيق المنهج الوقائي في حياة المسلم .

وإذا كانت الوقاية قد حققت النفع للمسلم في حياته، فذلك يعد من باب عاجل بشرى المؤمن، أما المكسب الحقيقي فهو واقع في الآخرة وصدق سبحانه القائل في سورة القمر : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

وبالتالي فثمرات المنهج الوقائي، وفوائده، وآثاره، ليست منقضية بانقضاء الدنيا وحسب، وإنما هي ثمرات، وآثار، وفوائد باقية، بل إن الأصل في ذلك والجزاء الحقيقي على تطبيق المنهج الوقائي القرآني؛ يكون عند الانتقال من دار الممر، إلى حيث دار المستقر، وهي الجنة دار السلام . تلك الفوائد، والثمرات، والآثار، الحقيقية الباقية :

١- الثبات على كلمة التوحيد حال الموت، ومفارقة الدنيا على رضا الله سبحانه، قال تبارك وتعالى في سورة إبراهيم : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

٢- النجاة من عذاب القبر، وهو أول منازل الآخرة، والإفساح للميت فيه، وبشارته بالجنة، ورؤية مكانه فيها، قال تعالى في سورة النحل : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

٣- الأمن يوم الفزع للبعث والنشور، حين صعقة الصور لقيام الناس إلى محشرهم، للحساب والجزاء، قال تعالى في سورة الأنبياء : ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ .

٤- الاستظلال تحت ظل عرش الرحمن، يوم لا ظل إلا ظله سبحانه، قال تعالى في سورة الفرقان : ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾ .

٥- تخفيف الوقوف عنهم؛ يوم العرض على أرض المحشر، في ذلك اليوم الطويل الثقيل، قال جل في علاه في سورة الإنسان : ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾ .

٦- الفوز بشفاعة الشافعين، وأول تلك الشفاعات شفاعة محمد ﷺ لعموم الخلق، تتلوها شفاعاته ﷺ لأهل الإيمان، ومن ثم شفاعات من أعطاه الله تعالى ذلك الفضل، قال تعالى في سورة المدثر : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ . وفي الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ : "**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة**"[1].

٧- تثقيل الموازين بالحسنات، ورجحانها على كفة السيئات، قال تعالى في سورة القارعة : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾ .

[1] متفق عليه . البخاري، (٤٣٨) . مسلم (٥٢١) .

٨- تيامن أخذ الصحف باليد اليمنى دليل الفوز والفلاح، قال تبارك وتعالى في سورة الإسراء : ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ ﴾ .

٩- تكليم الله تعالى لهم، والنظر إليهم نظرة عفو ورحمة، ومن ثم تزكيتهم من الذنوب والآثام، قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ .

١٠- النور المصاحب لهم حال المرور على الصراط، جزاء عملهم الصالح المرضي، قال تعالى في سورة الحديد : ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ ﴾ .

١١- النجاة من النار والزحزحة عنها، وكفى به فوزاً عظيماً، وهذا في حد ذاته فوز كبير يسبق دخول الجنة قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ .

١٢- الفوز بالجنة وهو الفوز العظيم، وهو الفوز المبين، وهو الفوز الكبير، لعموم أهل الإيمان، والطاعة، والعمل الصالح، قال تعالى في سورة التوبة : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ ﴾ .

١٣- رؤية الله جل جلاله في الجنة، وذاك هو غاية كل مسلم، وأغلى الثمرات، وأعلى المنازل، وما أعطي المؤمن في الجنة بأفضل من ذلك قال تعالى في سورة يونس : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ . وفي الحديث النبوي الشريف قوله ﷺ : (**أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها**» - يعني العصر والفجر - ثم قرأ جرير : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴿١٣٠﴾ ﴾[طه])[1].

وفي الحديث الآخر في قوله ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴿٢٦﴾ ﴾[يونس] . قال ﷺ : "**إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد : إن لكم عند الله موعداً، قالوا : ألم يبيض وجوهنا وينجنا من النار ويدخلنا الجنة ؟ قالوا : بلى، فيكشف الحجاب، قال : فوالله ما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه**)[2].

١٤- حلول رضا الله تعالى لعموم عباده الصالحين، الفائزين بجنته ورضوانه إلى أبد الآبدين، في دار لا انقطاع لنعيمها، ولا تنغيص فيه، ولا كدر، قال تعالى في سورة البينة : ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ .

---

[1] متفق عليه . البخاري، (٥٧٣) . مسلم، (٦٣٣) .

[2] رواه الترمذي (٢٥٥٢) . ابن ماجة (١٨٧) . وصححه الألباني من حديثيهما . وأحمد (١٨٩٣٥) وغيره .

١٥- تحقق كونهم من الشفعاء، تكرمة ومنحة من الله تعالى لهم، لمن وجبت له النار، قال تعالى في سورة المدثر : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

وبهذا كان المنهج الوقائي خير سبيل، ولا سبيل سواه يوصل العبد المؤمن إلى حيث بلوغ منازل الرضا، ودخول الجنة، وحمايته من كل أهوال القيامة، ومفازعها .

ففي البدء يختم حياة المؤمن بخير، ومن ثم ينقله إلى حياة البرزخ، وهو في خير حال أيضاً، حين يرى المؤمن مقعده من الجنة فيقول : (رب أقم الساعة) .

ثم ينقله إلى ساحة العرض، والحساب، والجزاء، حيث الأهوال الجسام فينجيه منها، ثم يقوده إلى حيث المصير والمستقر، والنهاية الأبدية السعيدة، في الجنة دار الرضوان . وهناك يسعدون فيها إلى أبد الآبدين، ويتمتعون بأنواع النعيم، وأكبر متعة فيها وأغلى نعمة هي رؤية رب العالمين جل جلاله وتعالى شأنه .

فكان ذلك المنهج الوقائي القرآني هو السبيل الوحيد، والطريق الأكيد، لنجاة الإنسان من عموم المهالك والأهوال في مراحل عمره الثلاث : وهي دار الممر (الدنيا الفانية)، ودار البرزخ في القبر الفترة الانتقالية، وفي الدار الآخرة حيث المصير النهائي .

الخاتمة :

الحمد لله الذي بنعمه تتم الصالحات، وصلى الله وسلم وبارك وزاد وأنعم وأتمم على المبعوث رحمة للعالمين، محمد خير البريات، جاء بشريعة سمحة يسيرة غراء، أخرج سبحانه بها الخلائق من غياهب الظلمات إلى شمس النور، بآيات بينات . ثم أما بعد :

فقد تبيّن أن المنهج الوقائي يمثل بصفة عامة أس أساس الشريعة الإسلامية، وعمقها الروحي الذي جاءت من أجله، وأن ذلك المنهج كما ضمن حفظ كل الضروريات، وسلامتها في الحياة الدنيا، فقد ضمن الفوز، والوصول إلى رضوان رب العالمين، والظفر بجنته سبحانه يوم الدين .

وهذا يعني أن الوقاية هي روح هذا التشريع السامي، في سماء الحياة الدنيا، والقائد إلى حيث منازل السعادة والرضا في الآخرة .

هذه الوقاية التي كانت كالسياج للمسلم في حياته، يعرف بها كيف يعبد ربه سبحانه وتعالى على بصيرة من أمره؛ هي التي قادته إلى حيث الأبد السعيد .

وهذا بالفعل غاية مراد ربنا تبارك وتعالى القائل في أكثر من آية من كتابه المحكم العزيز : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ . محبة صادقة عصمتهم عن اقتراف المعاصي وارتكاب الذنوب والوقوع في الآثام، هذا في الدنيا .

وتحقيقاً لقوله جل شأنه في محكم التنزيل : ﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُواْ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ . بالفعل نعم دار المتقين، وهذا في الآخرة .

وإجمالاً ! أراد ربنا سبحانه وبحمده أن نحقق دلائل قوله جل في علاه في الذكر الحكيم من سورة الفتح : ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾ . وكلمة التقوى هنا؛ هي قول : (لا إله إلا الله) الواقية من الشرك، وهي كلمة التوحيد الداعية للإخلاص في العمل، والتي وجب القيام بها والإلتزام بحقوقها، وبما تقتضيه من أمور .

كلمة التوحيد؛ هي السبب الأول للتقوى، متى عمل المسلم بمقتضاها على الوجه الصحيح . وبهذا يكون مضمون كلمة (لا إله إلا الله محمداً رسول الله) إنما جاء ليحقق التقوى في حياة المسلم، ولتقيم الخلق على منهج ومراد الحق، جملة وتفصيلاً .

والمحصلة النهائية هي أن الدين قد جاء بالوقاية الكاملة، بكل معاني الكلمة، ولا وقاية إلا بإقامة شريعته الغراء، التي تقي الإنسان من كل شر، وفساد، وضرر، وسوء، في دنياه .

وكان القرآن الكريم هو المنهج الوقائي السماوي، والمصدر الرباني، الذي جسّد ذلك وأظهره، وبيّنه، ووضّحه، وأوضحه .

وكما بدأ أول القول بالحمد أختمه به فالحمد لله رب العالمين، وسبحان ربنا وبحمده .

المصادر والمراجع

أولاً– كتب التفسير :

١– ابن عطية . عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت : ٥٤٢هـ) . المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز . المحقق : عبد السلام عبد الشافي محمد . الناشر : دار الكتب العلمية، بيروت . ط١، ١٤٢٢هـ . عدد الأجزاء : ٥ .

٢– ابن القيم الجوزية . محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت : ٧٥١هـ) . التفسير القيم للإمام ابن القيم . المحقق : مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان . الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت . ط١، ١٤١٠هـ .

٣– ابن كثير . إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي (ت : ٧٧٤هـ) . تفسير القرآن العظيم . المحقق : محمد حسين شمس الدين . الناشر : دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، بيروت . ط١، ١٤١٩هـ . عدد الأجزاء : ٨ .

٤– أبو بكر الجزائري . جابر بن موسى بن عبد القادر . أيسر التفاسير . الناشر : مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط٥، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م . عدد الأجزاء : ٥ .

٥– أبو السعود . العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت : ٩٨٢هـ) . إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم . الناشر : دار إحياء التراث العربي، بيروت . عدد الأجزاء : ٩ .

٦- السعدي . عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي (ت : ١٣٧٦هـ) . تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان . المحقق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق . الناشر : مؤسسة الرسالة . ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م .

٧- الشربيني . محمد بن أحمد الخطيب الشافعي (ت : ٩٧٧هـ) . السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير . الناشر : مطبعة بولاق الأميرية، القاهرة . نشر ١٢٨٥هـ . عدد الأجزاء : ٤ .

٨- الشعراوي . محمد متولي (ت : ١٤١٨هـ) . تفسير . الناشر : مطابع أخبار اليوم . عدد الأجزاء : ٢٠ .

٩- الطاهر ابن عاشور . محمد الطاهر بن محمد بن محمد التونسي (ت : ١٣٩٣هـ) . التحرير والتنوير . الناشر : الدار التونسية للنشر، تونس . نشر : ١٩٨٤هـ . عدد الأجزاء : ٣٠ .

١٠- الفيروز أبادي . مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت : ٨١٧هـ) . بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز . المحقق : محمد علي النجار . الناشر : المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة . عدد الأجزاء : ٦ .

١١- القاسمي . محمد جمال الدين بن محمد سعيد (ت : ١٣٣٢هـ) . محاسن التأويل . المحقق : محمد باسل عيون السود . الناشر : دار الكتب العلمية، بيروت . ط١، ١٤١٨هـ . عدد الأجزاء : ٩ .

١٣- المراغي . أحمد بن مصطفى (ت : ١٣٧١هـ) . تفسير . الناشر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، بمصر . ط١، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م . عدد الأجزاء : ٣٠ .

ثانياً– كتب علوم القرآن الكريم :

١٤– الأبياري . إبراهيم بن إسماعيل (ت : ١٤١٤هـ) . الموسوعة القرآنية . الناشر : مؤسسة سجل العرب . ط ١٤٠٥هـ .

١٥– الزركشي . محمد بن بهادر بن عبدالله (ت : ٧٩٤هـ) . البرهان في علوم القرآن . قدم عليه وعلق عليه وخرج أحاديثه : مصطفى عبدالقادر عطا . الناشر : دار الكتب العلمية، بيرت . ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م . عدد الأجزاء : ٤ .

ثالثاً– كتب العقيدة :

١٦– ابن تيمية . أحمد عبدالحليم الحراني (ت : ٧٢٨هـ) . النبوات . دراسة وتحقيق : محمد عبدالرحمن عوض . الناشر : دار الكتاب العربي، بيروت . ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

رابعاً– كتب الحديث الشريف :

١٧– ابن ماجة . محمد بن يزيد القزويني، (ت : ٢٧٣هـ) . سنن ابن ماجة . تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي . الناشر : دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي . عدد الأجزاء : ٢ .

١٨– أبو داود . سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد السِّجِسْتاني (ت : ٢٧٥هـ) . سنن أبي داود . المحقق : محمد محيي الدين عبد الحميد . الناشر : المكتبة العصرية، بيروت . عدد الأجزاء : ٤ .

١٩– أحمد . بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت : ٢٤١هـ) . المحقق : شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون . إشراف : د عبد الله بن عبد المحسن التركي . الناشر : مؤسسة الرسالة . ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م .

٢٠- الألباني . محمد ناصر الدين (ت : ١٤٢٠هـ) . صحيح وضعيف سنن أبي داود .

٢١- الألباني . محمد ناصر الدين (ت : ١٤٢٠هـ) . صحيح وضعيف سنن الترمذي .

٢٢- الألباني . محمد ناصر الدين (ت : ١٤٢٠هـ) . صحيح وضعيف سنن ابن ماجة .

٢٣- الألباني . محمد ناصر الدين (ت : ١٤٢٠هـ) . سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها . الناشر : مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض . ط١، عدد الأجزاء : ٦ .

٢٤- البخاري . محمد بن إسماعيل الجعفي (ت :٢٥٤هـ) . صحيح البخاري . الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه . المحقق : محمد زهير الناصر . الناشر : دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ . الأجزاء : ٩ .

٢٥- البخاري . محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي (ت : ٢٥٤هـ) . الأدب المفرد بالتعليقات . حققه وقابله على أصوله : سمير بن أمين الزهيري . من تخريجات وتعليقات الألباني . الناشر : مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض . ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

٢٦- الترمذي . محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، (ت : ٢٧٩هـ) . سنن الترمذي . تحقيق وتعليق : أحمد محمد شاكر (ج١،٢) . ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج٣) . وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج٤،٥) . الناشر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر . ط٢، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م . عدد الأجزاء : ٥ .

٢٧- مسلم . بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت : ٢٦١هـ) . المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ . المحقق : محمد فؤاد عبد الباقي . الناشر : دار إحياء التراث العربي، بيروت . عدد الأجزاء : ٥ .

٢٨- النسائي . أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (ت : ٣٠٣هـ) . المجتبى من السنن (السنن الصغرى) . تحقيق : عبد الفتاح أبو غدة . الناشر : مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب . ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م . عدد الأجزاء : ٨ .

٢٩- النسائي . أحمد بن شعيب بن علي الخراساني (ت : ٣٠٣هـ) . السنن الكبرى . تحقيق : حسن عبدالمنعم شلبي . الناشر : مؤسسة الرسالة، بيروت . ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م . عدد الأجزاء : ١٠ .

خامساً- كتب اللغة العربية :

٣٠- ابن دريد . أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت : ٣٢١هـ) . جمهرة اللغة . المحقق : رمزي منير بعلبكي . الناشر : دار العلم للملايين، بيروت . ط١، ١٩٨٧م . عدد الأجزاء : ٣ .

٣١- الجرجاني . علي بن محمد بن علي الزين الشريف (ت : ٨١٦هـ) . التعريفات . المحقق : ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر . الناشر : دار الكتب العلمية، بيروت . ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

٣٢- مجمع اللغة العربية . المعجم الوسيط . (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) . الناشر : دار الدعوة . القاهرة .

فهرس الموضوعات

مقدمة ٤
تمهيد ٧
الفصل الأول : أساسا المنهج الوقائي وخصائصه وأهميته ١٣
المبحث الأول : أساسا المنهج الوقائي ١٤
المبحث الثاني : خصائص المنهج الوقائي ٢٤
المبحث الثالث : أهمية المنهج الوقائي في القرآن الكريم ٤٥
الفصل الثاني : مجالات المنهج الوقائي في القرآن الكريم ٦٩
المبحث الأول : حفظ العقل ٧٠
المطلب الأول : مظاهر حفظ العقل ٧٣
المطلب الثاني : مقاصد حفظ العقل ٧٨
المبحث الثاني : حفظ الدين ٨٢
المطلب الأول : العقائد ٨٥
المطلب الثاني : التشريع ٩٥
المطلب الثالث : الأخلاق ١٠٦
المبحث الثالث : حفظ النفس ١١٠
المطلب الأول : الجانب الجسدي (المادي) ١١٣
المطلب الثاني : الجانب الروحي (المعنوي) ١١٨
المبحث الرابع : حفظ العرض ١٢٤
المطلب الأول : جانب المأمورات والمباحات ١٢٧
المطلب الثاني : جانب المنهيات والعقوبات ١٣٤
المبحث الخامس : حفظ المال ١٣٧

المطلب الأول : كيفية جمعه وكسبه ١٤٠
المطلب الثاني : كيفية إنفاقه ١٤٢
المطلب الثالث : التحذير من الإفتتان به ١٤٦
المطلب الرابع : التعاملات المالية بين الناس ١٤٨
الفصل الثالث : أساليب المنهج الوقائي القرآن الكريم ١٥٣
المبحث الأول : الدلالة اللفظية ١٥٤
المطلب الأول : الأمر والنهي الصريحان ١٥٨
المطلب الثاني : ما يدل على معنى الأمر والنهي ١٦٧
المبحث الثاني : الأساليب الوعظية ١٨٠
المطلب الأول : القصص القرآني ١٨٣
المطلب الثاني : ضرب المثل ١٩١
المطلب الثالث : الاعتبار بالسنن الكونية ١٩٦
المطلب الرابع : الذكر بالضد (المؤمنين، والكافرين) ٢٠١
الفصل الرابع : فوائد وثمرات المنهج الوقائي في القرآن الكريم ٢٠٦
المبحث الأول : الفوائد والثمرات الدنيوية العاجلة ٢٠٧
المبحث الثاني : الفوائد والثمرات الأخروية الآجلة ٢١١
الخاتمة ٢١٦
المصادر والمراجع ٢١٨
فهرس الموضوعات ٢٢٣